مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
العدد السادس
المحرم ١٤١٣

جهود صلاح الدين الأيوبي في بناء الجبهة الاسلامية وتأسيس الدولة الأيوبية حتى سنة ٥٧٣هـ

الدكتور
عبد العزيز بن راشد العبيدي
الأستاذ المشارك بكلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامسة

مقدمـــــــة

لقـد حظي صلاح الدين الأيوبي بدراسات كثيرة كما حظيت الحروب الصليبية بنفس القـدر من الاهتمام وكان جل هذه الدراسات تنصب على جهاد هذا القائد المسلم ودوره المميز ضد الصليبيين، وفي خضم هذه الدراسات برزت كثير من الآراء حول بعض الأحداث التي ظهرت في عصره وأخذ كل مؤرخ وكل باحث يفسر هذه الأحداث اما بتأثير سياسي أو فكري عقائدي ولذا تعرض هذا القائد المسلم لبعض الجور من خلال هذه الأحكام الموجهة، وتعرضت سيرته لبعض التشويه وأسيء الظن بكثير من تصرفاته وأعماله.

ومن هنا برزت لدي فكرة الكتابة فى هذا الموضوع متوخيا تحقيق هدفين:

الأول: هو دراسة أسباب النجاح والانتصارات التى أحرزها صلاح الدين والتي تتمثل في الأعمال التي قام بها قبل جهاده ضد الصليبيين ـ أي مرحلة بناء دولته وجيشه معنويا وماديا ـ حيث استغرقت منه هذه المرحلة فترة طويلة جداً، هي أطول من فترة جهاده ضد الصليبيين، هذه الأعمال أهملها بعض الباحثين، والبعض الآخر مر عليها مرور الكرام مركزين على دراسة النتائج فقط وهي انتصارات صلاح الدين، مع أن المهم هو معرفة كيف وصل صلاح الدين إلى هذه النتائج لا معرفة هذه النتائج فقط لكي نحصل على الدرس والفائدة من قراءة التاريخ، ومن هنا كان اختيارى لهذه المرحلة التى لم توف حقها من الدراسة رغم كثرة ما كتب عن صلاح الدين.

الثـاني : محاولة الرد على بعض الآراء القديمة والحديثة التى نالت من صلاح الدين بعلم من أصحابها أو بجهل منهم، مع التركيز على بيان التأثيرات التى تأثر بها أصحـــاب هذه الآراء وبيان الحقيقـة التى تدعمهـا أقـوال المؤرخـين المعـاصرين للأحداث. واعتمدت في هذه الدراسة على المصادر الأصيلة التى عايش أصحابها تلك الفترة غير مكتف بالمصادر الأيوبية فقط بل مستعينا بغيرها من المصادر.

تنسب الدولة الأيوبية إلى أيوب بن شاذى والد صلاح الدين الأيوبي وقد اختلف المؤرخون فى أصل الأيوبيين:

١ ـ فقال بعضهم أنهم من الأكراد من الروادية بطن من الهذبانية وهي قبيلة من أكبر قبائل الأكراد.[١]

٢ ـ وقال آخرون أنهم عرب واختلف هؤلاء إلى أي القبائل العربية ينتسبون وان كان أكثرهم يرى أنهم من سلالة بني أمية وأن نسبهم ينتهي بمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وأول من قال بهذا الرأى الملك المعز اسماعيل بن الملك العزيز طغتكين صاحب اليمن،[٢] وخلد ذلك فى أبيات هي:

وإني أنا الهادي الخليفة والذى أدوس رقاب الغلب بالضّمر الجرد
ولابد من بغداد أطوي ربوعها وأنشرها نشر السماسر للبرد
وأنصب أعلامي على شرفاتها وأحيي بها ما كان أسسه جدى
ويخطب لي فيها على كل منبر وأظهر دين الله فى الغور والنجد[٣]

ولكن الذى يميل إليه كثير من المؤرخين هو الرأى الأول أي أنهم أكراد وأنهم من بلد دَوين[٤] ويعدون فى الأشراف من الأكراد[٥] ويؤيد ذلك مايلي:

١ ـ ما ذكره ابن أبي طي من أنه بحث في أصل الأيوبيين فأجمع آل أيوب على أنهم ليسوا عربا، وأنهم لا يعرفون جدا فوق شاذي.[٦]

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠١، دار الكتاب العربي، بيروت، أبوشامة: الروضتين جـ١ ق٢ ص٣٢٩ تحقيق محمد حلمي، ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٢م، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٣٩ تحقيق احسان عباس، دار صادر.

(٢) الملك الأمجد الأيوبي: نسب الأيوبيين ص ٤٧ تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت.

(٣) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٥.

(٤) دَوين: بفتح أوله وكسر ثانيه بلدة في آخر حدود أذربيجان قرب تفليس، (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٩١ دار صادر، بيروت).

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠١.

(٦) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٤.

٢ ـ ما ذكره هذا المؤرخ من أن صلاح الدين أخبره بذلك.[١]
٣ ـ ما ذكره أبوشامة من أنه وقف على كتاب وقف الرباط النجمي بدمشق ولم يجد فيه إلا نجم الدين أبوسعيد أيوب بن شاذي العادلي[٢] ولو كان لهم نسب عربي لذكر في هذا الوقف وغيره من الأوقاف الأخرى.
٤ ـ ما أورده ابن خلكان من أنه تتبع نسبهم فلم يجد أحدا ذكر بعد شاذى وأنه اطلع على أوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم يجد سوى شيركوه بن شاذى، وأيوب ابن شاذى[٣].

أما ما ذكر من ادعاء الملك المعز اسماعيل بن طغتكين أنهم عربا فذلك راجع لأمور سياسية، حيث أن هذا الملك قد ادعى الخلافة وأراد أن يدعم موقفه أمام الخلفاء العباسيين بهذه الدعوى لتكون له سندا وتصح خلافته باعتباره عربيا قرشيا له حق في الخلافة ورثه من أجداده الأمويين.

على أن هناك من الأيوبيين من ذكر أنهم ليسوا أكرادا ولكنهم عربا سكنوا ديار الأكراد وتزوجوا منهم فأصبح بينهم خؤولة فقط.[٤] وهذا شبيه بما ادعاه الملك المعز اسماعيل.

وليست هناك معلومات كثيرة عن بداية ظهور هذا البيت ومشاركته في الحياة السياسية في العراق وهذا أمر طبيعي لأن اهتمام المؤرخين بالأيوبيين لم يظهر إلا بعد مشاركتهم في الحملات الزنكية على مصر.

تتفق المصادر التاريخية على أن أفراد هذه الأسرة وعلى رأسهم شاذي وابنه أيوب وشيركوه تركوا بلدهم دوين واتجهوا نحو العراق مركز العالم الإسلامى ومقر الخلافة العباسية، وفي العراق بدأت مشاركتهم العملية فى الحياة السياسية وكان أول عمل

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣٥.
(٢) المصدر السابق ص ٥٣٥.
(٣) وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٠.
(٤) الأمجد بن الناصر الأيوبي: نسب الأيوبيين ص ٤٤.

مارسوه هو ولاية قلعة تِكريت،[1]، على أن المصادر التاريخية تختلف فى ذكر الطريقة التى وصلوا بها لحكم هذه القلعة كما تختلف فى ذكر أول حاكم منهم. فابن الأثير يذكر أن أيوب وشيركوه قدما العراق وخدما مجاهد الدين بهْروز[2] شحنة[3] بغداد فأعجب بنجم الدين وعقله وحسن سيرته فجعله مستحفظاً لتكريت وكان أسن من أخيه شيركوه. [4]

ويذكر ابن أبي طي أن نجم الدين قد خدم للسلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلا وشهامة وسداد رأى فولاه قلعة تكريت. [5]

أما ابن خلكان فيذكر أن السلطان السلجوقي مسعود (٥٢٦ ـ ٥٤٧هـ) عين جمال الدولة المجاهد بهروز نائبا عنه في بغداد وواليا من قبله عليها فسار إليها واستصحب معـه صديقـه شاذى فسار هو وأولاده فى صحبته ثم أعطى السلطان قلعة تكريت لبهروز فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شاذى فولاه عليها وظل بها إلى أن توفي فتولى مكانه ولده نجم الدين أيوب. [6]

وعل الرغم من هذا الاختلاف بين الروايات إلا أنها تتفق على حقيقة هامة وهي أن بني أيوب قد أصبحوا حكاما لقلعة تكريت أوائل القرن السادس الهجري، [7] وقد نجح أيوب في ادارة شئون هذه الولاية «فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها أكرم

---

(١) تكريت: بفتح التاء والعامة يكسرونها، بلدة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب، لها قلعة حصينة راكبة على دجلة من غربيه. (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٣٨).

(٢) بكسر البـاء وسكون الهاء كان خادما روميا تولى شحنة بغداد قبل السلطان مسعود بن محمود السلجوقي، صاحب همة فى عمل المصالح وعمارة البلاد، توفي في رجب سنة ٥٤٠هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤١).

(٣) الشحنة أو الشحنكية: رياسة الشرطة، أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها، (ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٧ هامش ٥، تحقيق جمال الدين الشيال ١٩٥٣م).

(٤) الكامل: جـ ٩ ص ١٠١.

(٥) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٥.

(٦) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٦.

(٧) العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح البنداري ص ١٥٦، بيروت.

ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العبث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها» . [1]

ونتيجة لذلك فقد أحبه الناس وعظم فى نفوسهم وملك حبات قلوبهم ، وكان يقدر العلماء وأهل الدين فيكرمهم ويقدم لهم الضيافة والمال ويراسلهم فى بلادهم . [2]

على أن هذه الحال لم تستمر طويلا ففي سنة ٥٣٢هـ عزل بهروز الخادم نجم الدين أيوب عن ولاية تكريت وأمره بالخروج منها إلى أي مكان يريد . [3]

وقد أوردت المصادر التاريخية جملة أسباب لهذه الحادثة :

فابن الأثير يقول : «ان شيركوه قتل انسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأخرجهما بهروز من القلعة» . [4]

ويفصل ابن خلكان هذه القضية فيذكر أن المقتول هو الاسفهسار[5] وأن سبب قتله هو تعرضه لواحدة من النساء فاستنجدت بنجم الدين وأخيه أسد الدين فقتله أسد الدين بحربة كانت معه . [6]

أما أبوشامة فيذكر أن المقتول هو كاتب صاحب القلعة الذي كان نصرانيا فتعرض لأسد الدين بكلمة ممضة فما كان من أسد الدين إلا أن استل سيفه وقتله ، [7] ومن مجمل هذه الروايات يتضح أن القاتل هو أسد الدين وأن المقتول هو أحد رجال بهروز ، ولقد كان موقف نجم الدين من هذه القضية عادلا فقد قبض على أخيه

---

(١) أبوشامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦ .

(٢) المصدر السابق ٥٣٦ ـ ٥٣٧ .

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ١ ص ٦٣ ط ٢ .

(٤) الكامل : جـ ٥ ص ١٠١ .

(٥) بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء لفظين فارسي وتركي ومعناه مقدم العسكر (القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٧ ، ٨ ، المطبعة الأميرية .

(٦) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٧) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٧ .

واعتقله وأرسل إلى بهروز يخبره بما حدث ويطلب منه أن يفعل فيه ما يراه،[1] لكن هذا الموقف الشجاع من نجم الدين لم يكن له تأثير على بهروز فقد عزله عن الولاية وأمرهما بمغادرة تكريت إلى حيث يريدان. ولكن هل يمكن أن تكون حادثة القتل هذه سببا فى عزل نجم الدين أيوب؟

الحقيقة أنه على الرغم من اجماع المصادر التاريخية على هذا الأمر إلا أن تحليل هذه الأحداث وتمحيصها يجعل الباحث يشك فى وجود عوامل أخرى كانت وراء عزل وطرد آل أيوب من ولاية تكريت.

فالواضح أن نجم الدين أيوب قد عظم أمره واشتهر بين الناس فأحبوه ومالوا إليه نتيجة للسياسة الحكيمةالتى انتهجها فى حكمه لتكريت فلا يستبعد أن يكون بهروز قد خشي أن يستقل بنو أيوب بولاية تكريت وربما ينافسون السلاجقة في حكم العراق، خاصة أنهم أظهروا نوعا من الاستقلالية وعدم الارتباط بقوة معينة من القوى المتصارعة فى الساحة السياسية ويتجلى ذلك واضحا فى موقفهم من عماد زنكي واستقبالهم له بعد هزيمته أمام الخليفة العباسي ومساعدته. واعادته إلى الموصل رغم عدائه لمجاهد الدين بهروز الذى يتبعون له ـ كما سيأتي تفصيله فيما بعد ـ

ولقد أثر تصرف نجم الدين أيوب هذا على العلاقة مع بهروز « فسير إليه وأنكر عليه وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته؟ »[2]

وعلى هذا فإن حادثة القتل لم تكن إلا القشة التي قصمت ظهر البعير فاستغلها بهروز وطرد آل أيوب، وقد ألمح أبوشامة إلى هذه القضية فقال: «وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى ـ أى من قتل صاحبه ـ وحضر عنده من خوفه جرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٣.

من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب» .[1]

ولقد استجاب نجم الدين لهذا الطلب وأعلن السمع والطاعة وخرج من تكريت رغم ما أبداه أهلها تجاهه من عواطف ومودة حتى لقد خرج الجميع لوداعه مظهرين البكاء والأسف على فراقه .[2]

الاتصـــال بالزنكيين :

حدث أول اتصال بين بني أيوب وعماد الدين زنكي في تكريت سنة ٥٢٦هـ ففي هذه السنـة حدث نزاع بين السلطان السلجـوقي مسعـود وبـين الخليفـة العباسي المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ) وأراد زنكي مساعدة مسعود فسار بجيشه من الموصل يريد، بغـداد فعلم بمسـيره قراجـه الساقي أحد قادة السلاجقة فهجم عليه قبالة تكريت وهزمه ولم يجد زنكي بدا من الالتجاء لتكريت فاتجه إليها حيث استقبله واليها نجم الـدين أيوب استقبـالا طيبـا وضمد جراحه وأكرمه مدة اقامته ثم أمده بالزاد والـراحلة وشيعه إلى بلده الموصل،[3] ومنذ ذلك التاريخ استمرت الاتصالات بين الجـانبيين الأيوبي والـزنكي وحفظ زنكي لأيوب هذا الجميل فظل يواصله بالهدايا والألطاف مدة اقامة أيوب بتكريت.[4] وبعد وصول الأمر لأيوب بمغادرة تكريت لم يتردد في التوجه للموصل حيث صديقه عماد الدين زنكي ووصلها مع أهله وأولاده وأخوه شيركوه فاستقبله عماد الدين استقبالا حارا وأكرمهما وأقطعهما اقطاعا سنيا .[5]

ولقد عاش الأخوان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فى كنف عماد الدين زنكي ووردت بعض الإشـارات عن مشاركتهما له فى جهاده ضد الصليبيين يقول

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٤٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٢، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٥٥ .

(٤) أبوشامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٧ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٧ .

أبوشامة (وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج لعنهمالله تعالى وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفعلة الغراء)[1] ويظهر أن عماد الدين قد أدرك قدرة أيوب الادارية لما يتمتع به من رأي وتدبير لهذا جعله حاكماً لبعلبك بعدما فتحها سنة ٥٣٤هـ[2]. ولا يتصور أن تعيينه حاكما لها مجرد مكافأة له عن موقفه السابق لأن هذه المدينة لها أهميتها بالنسبة للمواجهة مع الصليبيين كما أنها تمثل منطقة نزاع مع حكام دمشق لذا لابد أن تتوفر فيمن يقوم بأمرها صفات خاصة تؤهله لمعالجة هذه الظروف وهى الصفات التي رأى عماد الدين بثاقب رأيه أنها موجودة فى أيوب.

أما شيركوه فقد كان يتمتع بصفات القائد العسكري الشجاع وقد أبقاه عماد الدين في جيشه يستفيد من صفاته هذه كما أنه قد ارتبط بعلاقة وثيقة مع نور الدين محمود بن زنكي في حياة والده،[3] وأصبحا متلازمين ولا يفترقان، وبعد أن اغتيل عماد الدين زنكي رحمه الله وهو يحاصر قلعة جعبر[4] سنة ٥٤١هـ اقتسم أولاده ملكه ووقف أسد الدين مع نور الدين وساعده كثيرا وأشار عليه بالتوجه إلى حلب والاستيلاء عليها معللا ذلك بأن من ملك حلب استظهر على بلاد الشرق فاستجاب نور الدين لهذا الرأى وسار إلى حلب فدخلها فى شهر ربيع[5] فكان لمشورته هذه أكبر الأثر على مستقبل نور الدين وبعد ذلك أصبح بمثابة الوزير له، وقد اشترك معه في جهاده ضد الصليبيين (فرأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته)[6].

يقول ابن الأثير أن نورالدين (رأى فيه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له

---

(١) الروضتين: جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠١، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٢.

(٤) جَعْبر: بالفتح ثم السكون قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين وتعرف قديما بدوسر. (ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ١٤١، ١٤٢).

(٥) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ص ١١٩، ١٢٠، دار الجيل، بيروت.

(٦) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص ١٠.

حمص والـرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره)[1] وقد ضبط أسد الدين اقطاعه هذا (فسد ثغورها وضبط أمورها وحمىٰ جمهورها) .[2]

أما أخوه أيوب فقد ظل حاكما لبعلبك فترة من الزمن غير أن حكام دمشق من الأسرة البورية طمعوا في أخذها بعد وفاة عمادالدين وحاصروها فاستنجد نجم الدين بآل زنكي لكنهم كانوا مشغولين بتثبيت ملكهم فضاق الحال على أهل بعلبك وخشى نجم الدين أن تسقط في يد الجيش الدمشقي عنوة فصالحهم وسلمها لهم مقابل اقطاع اشترطه لنفسه ثم انتقل إلى دمشق وأقام فيها وأصبح من أكبر الأمراء .[3]

وهكذا انفصل الأخوان مؤقتا فظل أسدالدين في خدمة نورالدين في حين انضم نجم الدين للدولة البورية، ولقد كان بين الدولتين الزنكية والبورية تنافس وعداء حول ملك دمشق فكان لهذا الانفصال أثر على حسم هذا النزاع لصالح الزنكيين .

وفى دمشق شهد نجم الدين أيوب الحملة الصليبية الثانية التي قادها ملكان من أعظم ملوك أوربا وهما كونراد الثالث امبراطور المانيا، ولويس الرابع ملك فرنسا، وكـان من أهـداف هذه الحملة اسـترداد الـرهـا والقضـاء على الزنكيين،[4] إلا أن الصليبيين أرادوا أن يبدأوا بالاستيلاء على دمشق أولا وانضم إلى هذين الملكين بقية الأمراء الصليبيين فى الشام وهاجم الجميع دمشق فى شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ - يوليو ١١٤٨هـ، وأبدى المسلمون فى هذه المدينة شجاعة عظيمة وتصدوا للمهاجمين، واشترك الجميع فى القتال، حتى الفقهاء والزهاد وعامة المسلمين، وانجلى الموقف عن هزيمة هذه الحملة الصليبية وتشتت شملها،[5] وكان لتدخل الزنكيين بقيادة نورالدين محمـود وسيف الـدين غازى إلى جانب معين الدين أنر حاكم دمشق اثر على رفع

(١) الكامل: جـ ٩ ص ١٠٢.

(٢) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٨٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٣.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦١٥، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٤٦٤، ٤٦٥، تحقيق سهيل زكار ١٤٠٣هـ دمشق. الفتح البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٠٧، أبوشامة: الروضتين جـ١ ص٥٢ الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت.

معنويات المسلمين وانتصارهم.[1]

هذا وإذا كانت المصادر التاريخية لا تفصح عن الدور الذى قام به أيوب ضد هذه الحملة، فإن الذى لا شك فيه أنه دور كبير، بدليل ترقيته بعد ذلك إلى قيادة جيوش دمشق،[2] وهو منصب كبير لابد أنه أثبت جدارة ومقدرة حتى وصل إليه. أما شيركوه فقد ظل مع نورالدين يسهم بنصيب وافر في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وأصبح الساعد الأيمن لنورالدين محمود فى جهاده وقائدا من أشهر قواده.[3]

وفى سنة ٥٤٩هـ أسهم الأخوان نجم الدين وأسد الدين مساهمة فعالة فى استيلاء نورالدين على دمشق فقد كان أسد الدين قائدا لجيوشه وكان عليه أن يصطدم بأخيه نجم الدين صاحب النفوذ في دمشق إلا أن ذلك لم يحدث حيث فتحت دمشق أبوابها لنورالدين واستسلم أهلها بطريقة لم يوضح المؤرخون كيفيتها أو سببها مما يجعل الشكوك تحوم حول نجم الدين ودوره في هذه القضية،[4] ويذكر ابن تغري بردي أن أسد الدين كان قد طلب من أخيه نجم الدين المساعدة على دخول دمشق (وقال له: هذا يجب عليك لأن مجيرالدين حاكم دمشق قد أعطى الفرنج بانياس وربما سلم اليهم دمشق بعد ذلك فأجابه نجم الدين)[5] وعلى هذا فان نجم الدين قد لعب دورا مهما فى تسهيل مهمة جيوش نورالدين، حتى أنه لم يقتل أحد فى تلك الحادثة. وقد كافأ نورالدين آل أيوب نتيجة لعملهم هذا فأسند أمر دمشق لأسد الدين،[6] ثم توسط أسد الدين لأخيه نجم الدين فاستقبله نورالدين وأقطعه اقطاعا حسنا، ورد نظر دمشق إليه، كما ولى ولده توارنشاه شحنكيتها[7] فأظهرا سياسة حسنة.[8]

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١١٢، ١١٣.

(٢) على بيومي: قيام الدولة الأيوبية في مصر ص ٧٥، الطبعة الأولى ١٩٥٢م.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠٣، ٥٠٤، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٠.

(٥) النجوم الزاهرة: جـ ٦ ص ٥.

(٦) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٣٩.

(٧) سبق التعريف بها ص ٣.

(٨) المصدر السابق ص ٢٥٠، ٢٥١.

وعلى العموم فقد تبوأ آل أيوب أعلى المناصب فى دولة نورالدين وأصبحوا من أقرب الناس إليه ، وطلبوا من نورالدين (كثيرا من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها فبذل لهما ـ أي نجم الدين وأسد الدين ـ ما طلبا منه وحلف لهما عليه فوفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده فى أعلى المنازل ولا سيما نجم الدين فان جميع الأمراء لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل عليه قعد من غير أن يؤمر بذلك) .[1]

(١) أبوشامة : الروضتين : جـ ١ ق ٢ ص ٣٣١ ، وكذلك ابن الأثير: الكامل : جـ ٩ ص ١٠٢ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٦ .

ولادة صلاح الدين ونشأته :

تجمع المصادر التاريخية على أن صلاح الدين، يوسف بن نجم الدين أيوب قد ولد فى الليلة التي غادر فيها والده وعمه تكريت إلى الموصل، وعلى هذا تكون ولادته سنة ٥٣٢هـ. [١]

أما نشأته فقد حكمت عليه ظروف أسرته التنقل من مدينة إلى أخرى فقد قضى طفولته الأولى فى الموصل وظل فيها حتى أسند لوالده حكم مدينة بعلبك فانتقل معه إليها وكان عمره إذ ذاك سنتان، وفي بعلبك تلقى صلاح الدين عناية خاصة باعتباره ابن الحاكم، ولا شك أنه تعلم فيها ما يتعلمه أبناء المسلمين من العلوم الشرعية كالقرآن والحديث وكذلك العلوم الأخرى كالعربية والتاريخ والأنساب، إلا أن المصادر التاريخية لا تمدنا بمعلومات كثيرة عن تلك الفترة المبكرة من حياته.

وبعد أن انتقل نجم الدين إلى دمشق استفاد صلاح الدين من وجوده فى هذه المدينة بمخالطة علمائها والتلقي منهم فسمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الحسن علي بن ابراهيم بن المسلم، وابن بري النحوي وأبي الفتح محمود بن أحمد الصابوني وابن عوف[٢] وجماعة وغيرهم، كما أنه لا شك قد استفاد من دروس عبدالله بن أبي عصرون[٣] في الجامع الأموى، وقد أكرمه صلاح الدين بعد ذلك وجعله من أخص خواصه. [٤]

وفى دمشق أيضا شهد صلاح الدين الحملة الصليبية الثانية وكان عمره إذ ذاك

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٥، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص٦٣.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٤٠.

(٣) فقيه شافعي بل هو رئيس أصحاب الإمام الشافعي في عصره عينه صلاح الدين بعد ذلك قاضيا لدمشق فظل فيها إلى أن مات في شهر رمضان سنة ٥٨٥هـ بدمشق. (ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٥٣ وما بعدها).

(٤) عبدالله ناصح علوان: صلاح الدين الأيوبي، بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، ص ٢٤ الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ.

احدى عشرة سنة فأثر هذا الجو المليء بالجهاد على شخصيته فنشأ محبا للجهاد ميالا إليه.

وفي سنة ٥٥٠هـ تولى صلاح الدين أول منصب إدارى وهو شحنة دمشق ولاشك أنه قد أظهر من الصفات ما يؤهله لتحمل هذه الوظيفة، ويكفى للتدليل على ذلك أن الذى كان يتولاها قبله كان عمه تورانشاه، [١] وقد خلد الشاعر حسان بن نمير الكلبي المعروف بعرقلة هذا الحدث في جملة قصائد ومنها: [٢]

رويدكم يالصوص الشآم فإني لكم ناصح في المقال
أتاكم سمي النبي الكريم يوسف رب الحجى والجمال
فذاك يقطع أيدي النساء وهذا يقطع أيدي الرجال

على أن أوضح شيء فى تاريخ صلاح الدين في تلك الفترة هو علاقته بنورالدين محمود بن زنكي فقد شمل نورالدين صلاح الدين برعايته وألحقه بخواصه وأصبح ملازما له لا يفارقه في سفر ولا حضر، وجعله (من أكابر أمرائه لا يفارقه راكبا فى ميدانه ولا جالسا فى إيوانه يقف على رأسه) [٣] واستأثره بمشاركته له اللعب بضرب الكرة وكان نورالدين يحب هذه الرياضة ويقضي بها أوقات فراغه لما يرى فيها من تدريب على الفروسية وترويض للخيول واستعداد دائم للجهاد، [٤] وكان لهذه المشاركة أعظم الأثر فى تكوين الجانب العسكرى لصلاح الدين وتهيئته لأمر الجهاد.

ويمكن القول ان شخصية هذا الشاب الأيوبي قد اتضحت معالمها واكتملت مقوماتها وأصبح مهيئا للقيام بعمل ما نتيجة لهذه التربية والاعداد الذى أحيط به منذ أن كان طفلا صغيرا، والدارس لشخصية صلاح الدين يدرك تأثير ثلاثة أشخاص فيه بحيث استفاد من كل واحد منهم ما يتميز به عن الآخرين واستطاع بذلك أن يجمع ما تفرق فيهم من صفات فى شخصيته. وأول هؤلاء هو والده نجم الدين وقد

---

(١) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ص ١٠٠.

(٢) محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات جـ ١ ص ٣١٨ تحقيق احسان عباس دار صادر، بيروت.

(٣) الفتح البندارى: سنا البرق الشامي ص ١٦، وانظر: ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٦.

(٤) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ١ ص١٢، ١٣ و جـ ١ ق ٢ ص ٣٨٢.

اشتهر باتقان فن الادارة والسياسة وأظهر نجاحا ملموسا في هذا الجانب، فقد برز فى تكريت وجعل منها بإدارته الجيدة مركزا مرموقا في العراق تهوي إليه أفئدة العلماء والفقهاء لما تميزت به من أمن واستقراء ورخاء، ونجح كذلك في إدارة مدينة بعلبك وهى البلد الذى يحيط بها الأعداء من جميع الجهات، واستطاع المحافظة على سلامتها وسلامة أهلها بتسليمها لحاكم دمشق معين الدين أنر حينما عجز الزنكيون عن مساعدته.

أما الرجل الثاني فهو عمه أسد الدين الذى برز كقائد عسكري فذ حقق الكثير من الانتصارات على الصليبيين وقاد جيوش الزنكيين من نصر إلى نصر حتى أعجب به نورالدين وعينه قائداً لجيوشه.

وأما الرجل الثالث والأخير فهو نورالدين محمود بن زنكي وقد تميز هذا الحاكم المسلم بالتدين وحب الجهاد وأظهر فى سيرته من العدل والرفق بالرعية ورعاية مصالحها والعمل على نشر الإسلام والدفاع عن بلاده ما جعل ابن الأثير يقطع بعدم ظهور شبيه له منذ عهد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله[1] وقد تأثر صلاح الدين بنورالدين يقول الأصفهاني: «وقد اقتدى به فى جميع ما اتصف به من التقى والعفة والنزاهة والنباهة وآداب الملك وأحكام السلطنة فتلقن منه مبادىء الخيرات ثم جاوز بها فى أيامه الغايات». [2]

وهكذا اجتمع فى صلاح الدين هدوء والده وتعقله ورصانة تفكيره، وشجاعة عمه وبسالته وقيادته، وتدين نورالدين وجهاده وعدله وأصبح بعد ذلك مهيئا للقيام بدور كبير له أثره على أسرته وعلى العالم الإسلامى أجمع.

---

(١) الكامل: جـ ٩ ص ١٢٥.

(٢) الفتح البندارى: سنا البرق الشامي ص ١٦.

الحملات الزنكية على مصر وسقوط الدولة الشيعية

قبل الحديث عن الحملات الزنكية على مصر يحسن التمهيد بنبذة عن أحوال الدولة الفاطمية الشيعية القائمة فيها آنذاك.

من المعروف أن نفوذ الخلفاء الفاطميين قد ضعف أواخر دولتهم وذلك نتيجة بروز مجموعة من الوزراء الذين استأثروا بالسلطة وحجروا على الخلفاء وتحكموا فى العزل والتولية، ففي عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٨-٤٨٧هـ) ظهر الوزير بدر الجمالي واستأثر بالسلطة دون الخليفة، ثم جاء ابنه الأفضل ابن بدر الجمالي فاستطاع سنة ٤٨٧هـ اقصاء نزار بن الخليفة عن الحكم وتولية أخيه أحمد الملقب بالمستعلي،[١] فحدث من ذلك التاريخ شقاق واختلاف بين اتباع المذهب الإسماعيلي كما أدى ذلك إلى ضعف الخلفاء وازدياد نفوذ الوزراء. وقد اشتهر من وزراء الدولة الفاطمية ذوي النفوذ والسطوة الوزير الصالح طلائع بن رزّيك الذى تولى الوزارة في أيام الخليفة الفائز سنة ٥٤٩هـ، ولما مات الفائز ولي الخلافة العاضد بتدبير هذا الوزير غير أن بعض الفاطميين ملوا من تسلط هذا الوزير فدبروا له عددا من المكائد للتخلص منه ونجحوا في احداها سنة ٥٥٦هـ حيث قتل.[٢]

وقد أدى مقتل هذا الوزير إلى فتح صفحة جديدة من الصراع العنيف بين الوزراء في الدولة الفاطمية، فعلى الرغم من تولى ابنه رزّيك الوزارة إلا أن الأمور لم تهدأ له فما كاد يستلم هذا المنصب حتى ثار عليه شاور السعدى، وكان شاور واليا على الصعيد الأعلى من قبل الصالح بن رزيك وحينما جرح الصالح أوصى ولده رزيك بأن لا يتعرض لشاور ولا يغير عليه حاله غير أن رزيك أصدر أمراً بعزل شاور مما دفعه

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ ٣ ص ١١ وما بعدها تحقيق محمد حلمي، القاهرة ١٣٩٣هـ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٥٢٦ وما بعدها، المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٤٦.

للثورة والاتجاه نحو القاهرة حيث قبض على رزيك وقتله وتولى الوزارة في المحرم سنة ٥٥٨هـ،[1] وبعد تسعة أشهر من توليه ثار عليه ضرغام بن عامر مقدم البرقية وأخرجه من القاهرة واستأثر بمنصب الوزارة،[2] ولم يجد شاور وسيلة لاستعادة وزارته سوى الاستعانة بقوة خارجية فاتجه نحو الشام يستنجد بنورالدين محمود بن زنكي ويطلب منه المساعدة، وهكذا نجد أن الأحوال في مصر سيئة جداً ويكفي للتدليل على ذلك تولي ثلاثة وزراء في سنة واحدة وهم العادل بن رزيك وشاور وضرغام ثم توجت هذه الأحداث بطلب التدخل الخارجي.

وصل شاور إلى دمشق في ربيع الأول سنة ٥٥٩هـ وعرض الأمر على نورالدين وحسن له أمر ارسال حملة حربية تعيده لمنصب الوزارة وفي المقابل وعده بثلث خراج مصر وتحمل نفقات الحملة وأن يبقى قائدها ينوب عنه في مصر، أو يعتبره هو نائبا له في حكمها.[3]

لم يكن نورالدين رحمه الله محتاجا إلى اغراءات يقدمها له شاور لكي يتدخل في شؤون مصر فهو بخبرته الطويلة في ميدان الجهاد ضد الصليبيين يدرك أهمية تلك البلاد بالنسبة لقوة الجبهة الإسلامية، ومع ذلك فإننا نراه يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى أول الأمر،[4] لكن هذا خوفا من غدر شاور وليس ايمانا بعدم جدوى التدخل فى شؤون مصر وأخيرا استجاب نورالدين لطلب شاور وبدأ الاستعداد لإرسال الحملة الزنكية الأولى إلى مصر.

أما أسباب هذه الاستجابة فقد ذكرها المؤرخون فابن الأثير يذكر أن ذلك رعاية

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٤٠، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٤٦ المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢، ابن ايبك الصفدى: الوافي بالوفيات جـ ١٦ ص ٩٥ تحقيق وداد القاضي، بيروت ١٤٠٢هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٨٤، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٤٦، المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٨٤، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٣٨.

لقصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوي على الفرنج.[1] أما ابن خلكان فيذكر لذلك سببين:

«أحدهما: قضاء حق شاور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخا، والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها فى غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك».[2]

وابن شداد يذكر أن دوافع هذه الحملة هي «قضاء لحق الوافد المستصرخ وجسا للبلاد وتطلعا إلى أحوالها».[3]

وعلى هذا فيمكن أن نستنتج دوافع هذه الاستجابة وهي:

(١) معرفة أحوال مصر وكشف أخبارها تمهيدا للاستيلاء عليها.

(٢) الاستفادة من الموارد المالية لمصر وتسخيرها لأمور الجهاد وبخاصة أن جزءاً منها كان يدفع للصليبيين ضريبة سنوية.

(٣) تضييق الخناق على الصليبيين بمحاصرتهم من الجنوب وقطع أملهم فى الاستيلاء على مصر.

(٤) اسقاط الدولة الفاطمية الشيعية وضم مصر للدولة العباسية واعادة المذهب السني للبلاد.

(٥) تحريض بني أيوب لنور الدين وبخاصة أسد الدين شيركوه فقد وردت إشارات كثيرة تدل على ذلك، يقول ابن الأثير: «وكان هوى أسدالدين في ذلك».[4]

هذه هى عوامل أو دوافع الحملة الزنكية الأولى إلى مصر وهي بلا شك دوافع تخدم الدولة الإسلامية وتعزز من مقدرتها فى التصدى للغزو الصليبي الجاثم فوق أرض المسلمين، فالصليبيون مدركون لأهمية مصر ودورها المهم والمعطل في تلك الفترة، ومدركون كذلك ضعف السلطة الموجودة فيها ولهذا فقد قاموا بإزالة نفوذها من

---

(١) المصدر السابق جـ ٩ ص ٨٤.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٥.

(٣) النوادر السلطانية ص ٣٦.

(٤) الكامل: جـ ٩ ص ٨٤.

فلسـطين، بل وبـدأوا فى الاستعـداد لاحتلال مصر نفسها والاستفادة من موقعها ومواردها، ففي سنة ٥٥٦هـ فكر بلدوين الثالث ملك بيت المقدس في غزو مصر وهـدد الخلافة الفاطمية وانتهز فرصة الفوضى التي عمت مصر عقب وفاة الخليفة الفائز ولم يثنه عن ذلك إلا تعهد الخلافة الفاطمية بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستين ألف دينـار،[1] ومنـذ ذلـك التاريخ والصليبيون يمارسون تدخلهم في شؤون مصر ويتقوون بأموالها ضد المسلمين.

ومن هذا المنـطلق وجـد نورالـدين بأنـه لابـد من انهاء هذه العلاقة بين مصر والصليبيين بل الاستفادة مما كان يستفيد منه الصليبيون وذلك بإيجاد الوضع الطبيعي لمصر وهو الانضمام للدولة الإسلامية.

وهنـاك أمـر آخـر لاشـك أنـه كان يشغـل تفكير نورالدين ويتعلق بفرقة العالم الإسلامي، فالمعروف أن هذا العالم فى تلك الفترة تتنازعه عدد من الزعامات وقد تضرر الجهاد الإسلامي كثيرا من وجود خلافة شيعية في مصر شقت وحدة المسلمين وبدأ وزراؤها في الاتصال بالصليبيين بل والتحالف معهم ضد بقية المسلمين وبخاصة الزنكيين السنة، ونورالدين يعتبر نفسه تابعا للخليفة العباسي السني في بغداد وتأثر كثيرا بالسلاجقة فى محاربتهم المذهب الشيعي في العراق فاهتبل هذه الفرصة السانحة للتدخل في شؤون مصر عله يستطيع اضعاف الخلافة الفاطمية الشيعية ويقضي عليها بعد ذلك وهذا هو ما حدث فعلا مما يدل على بعد نظره وحسن سياسته.

على أن تنفيذ هذه المهمة الخطيرة يحتاج إلى تخطيط وحسن اختيار لمن سيتولى القيام بها، ولم يجد نورالدين صعوبة فى الاختيار فلديه قائد فذ يمكن الاعتماد عليه في هذا المجال وهو أسد الدين شيركوه، ويعلل المؤرخون سبب الاختيار هذا، فابن الأثير يرجع ذلك إلى كون أسد الدين مقدم العسكر وأكبر أمراء الدولة وأشجعهم، كما أن هواه في ذلـك وعنـده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة،[2] ويقول ابن

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٦١.

(٢) الكامل: جـ ٩ ص ٨٤.

خلكان ان ذلك لشجاعته ومعرفته وأمانته[1]، أما ابن أبي طي فيعلل هذا الاختيار بسبب أن نورالدين لم يرسل أسد الدين في أمر إلا نجح ولم يولجه في مضيق إلا انفتح.[2]

وهكذا فان المصادر التاريخية تتفق على أن أسد الدين هو أنسب من يقوم بهذه المهمة وأنجح من يتصدى «لهذا الأمر العظيم والمقام الخطر»[3]

هذه هي دوافع الحملة الزنكية الأولى على مصر وهذه أسباب اختيار أسد الدين شيركوه لقيادتها أما ما تذكره بعض المراجع من أطماع أيوبية في تأسيس مملكة أو دولة في تلك الفترة المبكرة فانما هي تفسيرات يكتنفها الكثير من المبالغة وتحميل الأحداث ما لا تحتمل، فقد كانت الأهداف أسمى والغايات أنبل من ذلك.

الحملة الأولى:

انطلقت هذه الحملة من دمشق بقيادة أسد الدين شيركوه في جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ،[4] واستصحب معه شاور، كما استصحب ابن أخيه صلاح الدين وجعله مقدم عسكره ومستشاره[5] وكان عمره آنذاك سبعاً وعشرين. وقد كان نورالدين يدرك خطورة الطريق بين مصر والشام فخشي على جيشه من الصليبيين فأخذ يشاغلهم بهجمات متفرقة مما مكن أسد الدين من الوصول إلى مصر بأمان،[6] وفى مصر التقت الحملة الزنكية بجيش ضرغام الوزير الفاطمي وهزمته ودخل أسدالدين شيركوه القاهرة وقتل ضرغام الذى لم يدم فى الوزارة سوى تسعة أشهر وأعاد شاور للوزارة فى

---

(١) وفيات الأعيان: جـ ٧ ص ١٤٦.

(٢) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية، نقلا عن الروضتين جـ١ ق ٢ ص ٤١٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٢.

(٤) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٩، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٨٤ وذكر ابن شداد أن ذلك فى سنة ٥٥٨هـ، (النوادر السلطانية ص ٣٦) وقد حقق هذا الاختلاف ابن خلكان وذكر ما يرجح قول ابن الأثير والأصفهاني (وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٦).

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٦.

(٦) ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٤٦.

شهر رجب من نفس العام،[1] ، لكن شاور لم يف بما التزم به لنورالدين بل انه غدر بأسـدالـدين وطلب منه الرجوع إلى الشام، فاضطر أسدالدين إلى مغادرة القاهرة واللجوء لبلبيس[2] بنصيحة من ابن أخيه صلاح الدين،[3] وأرسل نوابه لأخذ بعض البـلاد، ولمـا كان شاور يدرك عجزه عن الوقوف في وجه أسد الدين فقد استنجد بالصليبيين وأرسل إلى ملك بيت المقدس يطلب منه المجيء لمصر لمنع سقوطها في يد الـزنكيين، ومع أن مملكة بيت المقدس مهددة من قبل نورالدين الذى أراد اشغال الصليبيين عن مصر فإن ملكها يدرك خطورة سقوط مصر في يد نورالدين وقد أشار إلى ذلـك ابن الأثـير إذ يقـول: «فـأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نورالدين إن ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها فلما أرسل شاور ليطلب منهم أن يساعدوه على اخراج أسدالدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسـير إليه وتجهزوا وسارعوا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن السير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد»،[4] ويعلق ابن واصل على ذلك بقوله: «وعلموا أنه إن ملكها نورالدين رحمه الله واستضافها إلى البلاد الشامية، لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام، وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم في وسط بلاده».[5] ولا شك أن هذا يؤكد ما ذكر أثناء الحديث عن دوافع الحملة من أهمية وضع مصر وخطورته على حركة الجهاد الإسلامي فى تلك الحقبة وهذا ما تنبه له ابن الأثير وأدركه. ومع قوة الجيش الصليبي الذى وصل إلى مصر فانه لم يستطع القضاء على الحملة الزنكية التي تحصنت في بلبيس

---

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٧٣، صححه هرتويغ درنبرغ، شالون ١٨٩٧م، أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٤١، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٤٨.

(٢) بِلبِيس: بكسر البائين وسكون اللام مدينة على طريق الشام تبعد عن الفسطاط عشرة فراسخ. (ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٤٧٩).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٧.

(٤) الكامل: جـ ٩ ص ٨٥، والمقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧٦.

(٥) مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٩.

وانتهى الحصار الذى دام ثلاثة أشهر بصلح بين الجانبين عاد على أثره أسد الدين بحملته إلى الشام.

ومما لا شك فيه أن لجهود نورالدين أثر كبير على عقد هذا الاتفاق ذلك أنه ما ان علم بحصار جيشه في بلبيس حتى أخذ يهاجم المدن والقلاع الصليبية فاستولى على حارم وهاجم بانياس[1] مما كان له عظيم الأثر في نفوس الصليبيين وبخاصة حينما أرسل إليهم نورالدين بأعلام من هزمهم من الفرنج فنشرت على أسوار بلبيس فخشى الصليبيون على بلادهم وسعوا للصلح.[2]

لقد تمخضت هذه الحملة عن نتائج مهمة أولها اعادة شاور إلى منصب الوزارة، ولا شك أن عودته قد أدت إلى استمرار الحالة السيئة للبلاد المصرية لما عرف عنه من سوء سيرة واستغلال للناس واستهانة بهم،[3] وهذا أدى بدوره إلى استمرار التدخل الخارجي في شؤون تلك البلاد.

ولا شك أنه بهذه الحملة تكونت لدى أسد الدين صورة واضحة عن الوضع فى مصر نقلها بدوره إلى نورالدين وهى صورة سيئة لخصها ابن شداد في قوله: «أنها بلاد بغير رجال تمشي الأمور فيها بمجرد الايهام والمحال».[4] وهو يقصد بالتأكيد دولة الفاطميين لا شعب مصر الذى أثبت دوره المهم في الجهاد الإسلامي بعد زوال هذه الدولة.

ولقد عاد أسدالدين إلى الشام وهو يدرك سهولة اسقاط الخلافة الفاطمية وأهمية ضم مصر للجبهة الاسلامية لذا ظل يتحدث بقصدها ولديه حرص عظيم لتحقيق ذلك،[5] ويلح على نور الدين كل وقت لإعادته إليها، بل انه قضى الفترة الواقعة بين

---

(١) أبوالفداء: المختصر جـ٣ ص ٤١، الذهبي: دول الإسلام جـ٢ ص ٧٣ تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم - ١٩٧٤م القاهرة.

(٢) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية، نقلا عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٢.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٨.

(٤) النوادر السلطانية ص ٣٦.

(٥) ابنُ الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٩٥، الباهر ص ١٣٢.

الحملتين الأولى والثانية «بالشام مدبرا لأمره، مفكرا في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا لقواعد ذلك مع الملك العادل نورالدين رحمه الله»،[1] وتذكر المصادر التاريخية أن هذا الأمر نما إلى سمع شاور في مصر فخاف على نفسه وبخاصة أنه يعرف مقدار حنق شيركوه عليه لغدره به وعدم وفائه بما وعده به وأصبح يتوقع الهجوم على مصر من قبل الزنكيين في كل لحظة مما دفعه إلى اللجوء للقوى الصليبية في الشام يستنجد بهم ويطلب منهم المساعدة،[2] ولم يكن نورالدين أو أسدالدين ليسكتا عن هذا الأمر بل أعدا العدة لحملة أخرى تتوجه إلى مصر لانقاذها من الوقوع في أيدي الصليبيين حتى أن الأمر أصبح في حقيقته سباقا بين الزنكيين والصليبيين على مصر، ولم يكن نورالدين متردداً هذه المرة لأن أسد الدين «أخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوقه إلى ملكها فرغب فيها نورالدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال».[3]

الحملة الثانية:

وفى ربيع الأول من عام ٥٦٢هـ سار أسدالدين شيركوه إلى مصر على رأس حملة زنكية ومعه مجموعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف الذي ألزمه نورالدين بالسير مع كراهته ذلك،[4] وتوافق وصول الحملة الزنكية مع وصول الصليبيين بقيادة الملك عموري ملك بيت المقدس وقد استقبلهم شاور وعسكر معهم في بلبيس استعدادا لملاقاة أسد الدين غير أن أسد الدين عرف بهذا فسلك طريقا آخر حيث اتجه نحو الجنوب وأخذ يشن الغارات ويستدرج الفرنج إلى صعيد مصر.[5] ولقد كان أسد الدين يقصد باتجاهه صوب الجنوب الحصول على مساعدة المصريين الناقمين

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٧.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٤٧

(٣) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية، عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٤.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٧، ابن الأثير: الباهر ص ١٣٢ ويذكر ابن الأثير أن مسير أسد الدين كان في شهر ربيع الآخر.

(٥) يحيى بن أبي طي: السيرة الصلاحية، عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٥.

على شاور حيث تتركز المعارضة في جنوب مصر وشمالها وقد ذكرت المصادر انضمام كثير من هذه الفئـات إليه وامـدادها له بالسلاح والأموال.[1] وفي هذه الظروف السيئة بالنسبة لمصر يسجل التاريخ موقفا مشرفا لأسد الدين حيث يذكر ابن أبي طي أنه أرسل لشاور رسولا يدعوه فيه إلى الاتفاق والاتحاد ضد الفرنج للقضاء عليهم وتخليص مصر من شرهم وأوضح له أن ذلك أيضا سيضعف موقفهم في الشام ويمهد لإزالتهم منه، وفي مقابل هذا العرض يتعهد لشاور بترك أمور مصر بعد ذلك له ويوضح له عدم طمعه فيها، لكن شاور آثر التحالف مع الصليبيين ورد على أسد الدين قائلا: إن هؤلاء هم الفرج وليسوا الفرنج كما يقول وقتل الرسول وأخبر الفرنج بفحوى هذه الرسالة وتعاهد معهم على قتال أسد الدين[2] فكان لابد من الحرب، وبالبابين[3] في صعيد مصر حدثت معركة غير متكافئة بين عشرات الألوف من الفرنج وجند شاور، وبين ألفي فارس هم رجال الحملة الزنكية ولجأ أسد الدين الذى اشتهر بالشجاعة والحنكة العسكرية للحيلة واستطاع تحقيق نصر عظيم على هذا التحالف، وأبلى ابن أخيه يوسف بلاءاً حسنا في هذه المعركة التي تعد أول تجربة عسكرية له ضد الصليبيين.[4]

لقد أسفرت هذه المعركة عن نتائج مهمة بالنسبة لأسد الدين فقد انفتح الطريق أمـامه إلى الاسكندرية حيث سار إليها يجبي في طريقه الأموال ويستميل الرجال، وفتحت الاسكندرية أبوابها لأسد الدين واستناب عليها ابن أخيه ثم عاد إلى الصعيد حيث ملكـه وجبى أمـوالـه وأقام به حتى رمضان من عام ٥٦٢هـ،[5] وقد استغل الصليبيون انشغاله في الصعيد فهاجموا الاسكندرية وحاصروا صلاح الدين وضيقوا عليه الخناق فاستنجد بعمه ولما علم الصليبيون بذلك عرضوا الصلح على أسدالدين

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢٥، ٤٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٥.

(٣) البابين: قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٧ هامش ٢).

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٣٢، ١٣٣، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٩٨، ٩٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥١.

فرضى بذلك وكان من بنود هذا الصلح :[1]

١ ـ أن يدفع شاور لأسد الدين جميع ما خسره في هذه الحملة، ومقداره خمسين ألف دينار عدا ما جباه هو من البلاد.

٢ ـ أن لا يقيم الفرنج في مصر ولا يتملكوا بلدا واحدا.

٣ ـ أن يعود أسد الدين ورجاله ويسلموا الاسكندرية للمصريين.

٤ ـ أن يعطي ملك الفرنج لصلاح الدين مراكب يحمل عليها الضعفاء من أصحابه.

وعاد أسد الدين بعد ذلك للشام حيث وصل دمشق في شهر ذي القعدة.

ولقد نقض شاور والصليبيون بعض بنود هذا الصلح حيث تذكر المصادر أن الصليبيين طلبوا من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بأيدي فرسانهم وأن يدفع لهم مائة ألف دينار كل سنة، وكان هدفهم ضمان عدم عودة أسد الدين على غفلة منهم.[2]

ولقد تمخضت هذه الحملة عن نتائج مهمة بالنسبة لمصر وبالنسبة للأيوبيين فلقد سلمت مصر من الوقوع في يد الصليبيين وان كان الصليبيون قد حصلوا على بعض الامتيازات إلا أنها لم تكن في مستوى طموحات ملك القدس، ولا شك أن وجود هذا المنافس القوي لهم والمتمثل في الزنكيين قد حال دون تحقيق رغبتهم تلك.

أما بالنسبة للأيوبيين فقد كانت هذه الحملة رصيدا عظيما لهم يضاف إلى جهودهم في الكفاح ضد الصليبيين في الشام، كما أن صلاح الدين قد برز كقائد شجاع في معركة البابيين وفى حصار الاسكندرية ونجح في هذه التجربة المبكرة نجاحا كبيرا، وقد ازدادت معرفة بني أيوب بمصر وخبروا طرقها ومدنها وتعرفوا على أهلها وجندها فازدادت الرغبة لديهم في تملكها وبخاصة أسد الدين شيركوه الذى خرج منها «وفي

---

(١) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٤٢٧، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٩٩، وابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٢.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩.

قلبه الداء الدوي منها لأنه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدها أمرا عظيما». [1]

الحملة الثالثة :

على الرغم من الجهود التي بذلها نور الدين لاقناع أسد الدين بترك التفكير بمصر والسلو عنها[2] فانه لم يستطع ثنيه عن العزم على ضمها لأملاك الدولة الزنكية والقضاء على الوزير شاور، بل لقد أصبح أسد الدين وربما آل أيوب جميعا هم المحرضين لنور الدين ضد شاور والفاطميين وأخذوا يتحينون الفرصة للانقضاض على مصر مرة أخرى، وقد أدرك شاور هذا الأمر فنجده يراسل نور الدين في ذلك ويعده بحمل مقرر كل سنة من أموال مصر إن هو صرف همة أسد الدين ومنعه من العودة إلى مصر ويورد لنا ابن أبي طي كتابا من شاور لنور الدين بهذا الخصوص يصانعه ويهادنه ويحلف له بالولاء والطاعة ويرفق معه هدية سنية. [3]

على أن الفرصة السانحة قد أتت للأيوبيين سنة ٥٦٤هـ وذلك حينما هاجم الصليبيون مصر بقيادة عموري ملك بيت المقدس، وذلك أن الحامية الصليبية في القاهرة قد هونت أمر مصر وأغرت عموري بمهاجمتها والاستيلاء عليها كما أن الطوائف الصليبية في الشام هي الأخرى مارست الضغط عليه لضم مصر[4] ونفذ عموري هذا المخطط واستطاع الوصول للقاهرة والاستيلاء على ما في طريقه وأصبح الخليفة الفاطمي والوزير شاور محاصرين في القاهرة ولا تدل الظروف المحيطة بهما على أى أمل فى صد هذه الهجمة الصليبية، وبخاصة بعد ما حصل من القتل والنهب والسلب من قبل الصليبيين ضد المسلمين، وإزاء ذلك اتصل شاور بالخليفة العاضد وشرح له الأوضاع وأشار عليه بطلب النجدة من نور الدين[5] ولعله لجأ إلى ذلك لأنه

(١) ابن أبي طي : نفس المصدر ص ٤٢٨.

(٢) الفتح البنداري : سنا البرق الشامي ص ٢٤.

(٣) ابن أبي طي : نفس المصدر ص ٤٢٩.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٣٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٧٤.

(٥) ابن أبي طي : نفس المصدر ص ٤٣٢.

يدرك أن نورالدين لم يعد يثق به ولا بوعوده بعد غدره برجال حملته الأولى والثانية، ولما كان الخطر جسيما فلعل نورالدين يستجيب لطلب الخليفة، واستجاب الخليفة لمشورة شاور وأرسل يطلب النجدة من نورالدين وقد أرفق بالكتب شعور نسائه وقال لنور الدين: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج»[1] وقد اهتم نورالدين بهذا الأمر وشرع في تجهيز النجدة لمصر، والحقيقة انه قد استجد في هذه الحملة أمران مهمان:

فالأول: هو اتصال الخليفة الفاطمي بأسد الدين مباشرة وطلبه منه السير حيث يذكر ابن الأثير أنه قد وصلت كتب لأسد الدين من المصريين مما دفعه للاستعداد قبل وصول الأوامر له من نور الدين.[2]

أما الأمر الثاني: فهو حصول اتفاق بين نور الدين والخليفة العاضد نفسه حيث أن الخليفة وعد نور الدين بثلث خراج مصر وأن يقيم شيركوه في مصر بعسكره ويتحمل الخليفة اقطاعهم.[3]

ان هذا بلا شك يعني تطورا مهما في العلاقة بين هذه الأطراف، فآل أيوب وعلى رأسهم أسدالدين أصبحوا هم المؤهلين في نظر الفاطميين لتولي مهمة حماية مصر وطرد الصليبيين ولم يعد هذا هو رأي نورالدين فقط، كما أن عقد الاتفاق مع الخليفة نفسه يعطيه أهمية عظيمة تجعل من الصعب على الوزير شاور التنصل منه والغدر بأسد الدين مرة أخرى بحيث أن هذه الظروف تشير إلى أن هذه الحملة ستكون هى الحملة الحاسمة التى سيتقرر بها مصير الخليفة ووزيره وهو ما حدث فعلا بعد ذلك.

أمر نور الدين قائده أسد الدين بالمسير إلى مصر وهيأ له من أسباب النصر الشيء الكثير فقد أعطاه الحرية في اختيار رجال حملته من خيرة جند نورالدين فاختار من العسكر ألفي فارس وضم اليهم ستة آلاف فارس من التركمان كما استعان بمجموعة

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٣٨، أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٠.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٣٨، ١٣٩، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٥.

من أمـراء نورالدين ومماليكه وجهزه بالأموال والأسلحة والدواب ومنح كل رجل في الحملة مبلغاً من المال[1] مما يدل على اهتمام نور الدين بهذه الحملة وتصميمه على انقاذ مصر من الصليبيين وضمها للجبهة الإسلامية، وقد حرص نور الدين على مشاركة صلاح الدين في هذه الحملة لما علمه من أخباره في الحملات السابقة وكان صلاح الدين يكره المشاركة والسير إلى مصر فعزم عليه نور الدين واكرهه على ذلك، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله: «أحب نورالدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الـدين المسير وفيه سعادته وملكه»[2] أما ابن شداد فينقل عن صلاح الدين قولـه: «كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وماخرجت مع عمي باختياري» وهذا كما يقول ابن شداد معنى الآية الكريمة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾.[3] الآية، ٢١٦ البقرة.

ويذكر ابن كثير «أن صلاح الدين لم يكن منشرحا لخروجه هذا بل كارها له وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾»[4] الآية ٢٦ آل عمران.

سار أسد الدين إلى مصر منتصف ربيع الأول عام ٥٦٤هـ وعلم الفرنج بمقدمه ورأى ملكهم أنـه لا قبـل له بمـواجهته وبخاصة أن المصريين وعلى رأسهم شاور والخليفة معه ضدهم واتفق مع قادته على الانسحاب من مصر مكتفياً بما حصل عليه من الغنائم والأسرى،[5] على أن ابن أبي طي يذكر أن انسحابهم كان بموجب اتفاق بينهم وبـين شاور الـوزير الفاطمي الذى نصحهم بالعودة لبلادهم،[6] كما أن ابن تغري بردي يذكر أنه بموجب هذا الاتفاق فقد دفع شاور لملك الفرنج مائة ألف دينار.[7]

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٩٤.

(٢) الباهر ص ١٠١.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٩.

(٤) البداية والنهاية: جـ ١٥ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٩، ابن الأثير: الباهر ص ١٣٩.

(٦) السيرة الصلاحية ص ٤٣٥ من كتاب الروضتين لأبي شامة.

(٧) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥٠.

ومهما يكن السبب فإن الطريق قد انفتح لأسد الدين الذى دخل القاهرة يوم الأربعاء السابع من ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ فتلقاه الخليفة العاضد وخلع عليه خلعا كثيرة وأعطاه هدايا عظيمة وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة،[١] وفى يوم الجمعة التاسع من ربيع الآخر حضر أسد الدين إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد، كما أن الوزير شاور أظهر له ودا كثيرا[٢] لما رأى من قوته وميل العاضد نحوه، ويصور لنا بهاء الدين بن شداد الوضع العام فيقول: «وأقام أسد الدين بها ـ أي القاهرة ـ يتردد إليه شاور في الأحيان وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل اليهم شيئا، وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد، وعلموا أن الإفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاور يلعب بهم تارة، وبالإفرنج تارة أخرى وملاكها كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إن خرج إليهم»،[٣] ولقد أدرك الوزير شاور هذا الأمر وأن طموح أسد الدين لن يتوقف عند هذا الحد فاهتمامه بمصر وتتابع حملاته نحوها لا يدل على أنه سيتركها في هذه المرة ففكر في التخلص منه قبل أن يفعلها هو وأصبح الأمر سباق بين الإثنين أيهما يقتل صاحبه أولا سيفوز بوزارة مصر ومن ثم يحكمها، ويصرح المؤرخ ابن الأثير بعزم شاور على قتل أسد الدين ويذكر أن ابنه الكامل قد ثناه عن هذا العزم خوفا من الفرنج،[٤] وفي المقابل فقد بدأ أمراء الحملة النورية التخطيط للقبض على شاور لمماطلته وعدم دفعه ما اتفق عليه وقد نفذ هذه العملية صلاح الدين الأيوبي حيث أقدم على شاور وقبض عليه وأحضره لعمه أسد الدين فلما علم العاضد بذلك أصدر أمرا بقتله ونفذ الأمر في السابع عشر من ربيع الآخر،[٥] وبذلك تخلص

---

(١) ابن أبي طي: المصدر السابق ص ٤٣٥، ابن الأثير: الباهر ص ١٣٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٥٠.

(٣) النوادر السلطانية ص ٣٩.

(٤) الكامل جـ ٩ ص ١٠١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦١.

(٥) الفقيه عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٨٠، ٨١، ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٠، ابن الأثير: الباهر ص ١٤٠، ابن خلكان: جـ ٢ ص ٤٤٨.

أسد الدين من العقبة الكؤود التي حالت دون تحقيق حلمه في ضم مصر والتحكم في خلافتها، وتخلصت مصر من ذلك الوزير الذى سفك الدماء وأكثر القتل حيث كانت الرقاب تضرب بين يديه في دار الوزارة ثم تسحب خارج الدار.[1]

تولي أسد الدين الوزارة:

لم يتردد الخليفة العاضد في توليه أسد الدين شيركوه وزارة الخلافة الفاطمية حيث تجمع المصادر على أنه خلع عليه وقلده الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش وأصدر منشورا بذلك قرىء على رؤوس الأشهاد واستولى أسد الدين على دار الوزارة وذلك في يوم الأربعاء السابع عشر من ربيع الآخر عام ٥٦٤هـ.[2]

على أن ابن أبي طي الحلبي يذكر أن تولي أسد الدين الوزارة قد أغضب سيده نور الدين وأنه كره وصوله إلى هذا المنصب، بل انه يذكر عدم سعادة نور الدين بما حصل في مصر وسعيه لدى العاضد بإرجاع أسد الدين للشام،[3] وناقش هذا الرأى المؤرخ أبوشامة فشكك في زعم ابن أبي طي، وإن صح هذا الزعم فمرده هو خوف نور الدين على أسد الدين من أن يميل إلى القوم ومذهبهم وأن يفسد جنده عليه بسبب ذلك،[4] وأما طلبه من العاضد ارجاع أسد الدين فلأنه كان في أمس الحاجة إليه في حربه ضد الصليبيين وقد أوضح ذلك نور الدين في رسالته للعاضد حيث يقول: «وقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوز عسكره يمن نقيبته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه مازال يرمي شياطين الضلال بشهابه الثاقب، ويصمي معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب».[5]

---

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية ص ٨٧.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١٤٠، ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٤، ١٦٥، ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ١٦ ص ٩٧، ١٤٠٢هـ، وقد أورد القلقشندي المنشور الصادر من الخليفة العاضد لأسد الدين بتولي الوزارة كاملا، صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٨٠.

(٣) السيرة الصلاحية ص ٤٣٧.

(٤) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٣٧.

(٥) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٤٣٧.

أما سياسة أسد الدين في الوزارة فإنه نتيجة لقصر مدة وزارته فلم يغير شيئا من تنظيماتها، وأبقى أصحاب الوظائف على قواعدهم وأمورهم[1] بحيث أن وزارته لم يكن لها أثر يذكر على الخلافة الفاطمية.

وفي يوم الثاني والعشرين من جمادي الآخرة من سنة ٥٦٤هـ مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين وأيام من توليه الوزارة.[2]

وقد وصفه ابن أبي طي فقال: «كان شجاعا، بارعا، قويا، جلدا في ذات الله شديدا على الكفار وطأته، عظيمة في ذات الله صولته، عفيفا، دينا، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار».[3]

وزارة صلاح الدين الأيوبي:

شغر منصب الوزارة بعد وفاة أسد الدين وكان لابد من تولي أحد رجال الحملة هذا المنصب حتى لا تضيع كل الجهود التي بذلت لتحقيق هذا الغرض، وقد وقع اختلاف بين كبار القواد في الحملة الزنكية وبدأ التنافس بينهم للفوز بهذا المنصب وبرز مجموعة من هؤلاء الأمراء وهم: عين الدولة الياروقي، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، وسيف الدين علي بن أحمد الهكارى حفيد صاحب قلاع الهكارية،[4] ولكن صلاح الدين الأيوبي فاز بهذا المنصب حيث أرسل إليه الخليفة العاضد وأمره بالحضور فخلع عليه خلعة الوزارة وولاه الأمر بعد عمه في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ.[5] وقد اختلفت آراء المؤرخين في سبب اختيار العاضد لصلاح الدين:

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٠، الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ١٦ ص ٢١٥.

(٣) السيرة الصلاحية ص ٤٣٨.

(٤) الهكارية: بالفتح وتشديد الكاف بلدة وناحية وقرى فوق الموصل يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية (ياقوت: معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٠٨).

(٥) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية ص ٤٣٩، ابن الأثير: الباهر ص ١٤١، ١٤٢.

فابن الأثير يعزو ذلك إلى ضعف صلاح الدين، حيث يقول: «وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين»[1] في حين يناقض ابن أبي طي هذا الرأى ويجعل السبب هو شجاعة صلاح الدين وحسن تدبيره «كان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله، وسداد رأيه، وشجاعته، واقدامه على شاور فى موكبه»[2] ولعل كلام ابن أبي طي أقرب إلى الحقيقة والواقع مما ذكره ابن الأثير، وذلك أن تاريخ صلاح الدين واشتراكه فى الحروب مع عمه فى معركة البابين وفي حصار الاسكندرية وما أظهره فيه من شجاعة وفروسية تدحض رأي ابن الأثير السابق.

والحقيقة أن الخليفة العاضد لم يكن ـ كحال الخلفاء الفاطميين المتأخرين قبله ـ له خيار في تعيين وزيره ومن ثم فان اختيار صلاح الدين إنما جاء عن طريق رجال الحملة الزنكية ووافق عليه الخليفة، وتشير المصادر إلى الدور الكبير الذى قام به الفقيه عيسى الهكاري[3] في سبيل تولية صلاح الدين للوزارة، ذلك أنه سعى لكل واحد من المتنافسين وأقنعه بالتنازل لصلاح الدين وخوفه من منافسيه أو أغراه بزيادة الإقطاع فرضى الجميع ما عدا عين الدولة الياروقي الذى امتنع وعاد إلى نور الدين فى الشام فأنكر عليه فراق صلاح الدين،[4] مما يشير أيضا إلى رضا نور الدين عن تولي صلاح الدين للوزارة.

والواقع أن اختيار صلاح الدين كان هو الوضع الصحيح وهو أحق الأمراء بها لقرابته من أسدالدين أولا، ثم لمواقفه المشرفة معه ضد الصليبيين وضد شاور وقد كان مقدم عسكره وقائد القلب في معرك البابين وقائد الجيش الذى ظل في الاسكندرية فكل هذه مؤهلات قوية لتوليه هذا المنصب، ولا شك أنه لم يجد معارضة من قبل

---

(١) الباهر ص ١٤٢، والكامل جـ ٩ ص ١٠٢.

(٢) السيرة الصلاحية ص ٤٣٩.

(٣) عيسى الهكاري: أبومحمد ينتسب للحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما اشتغل بالفقه في حلب ثم اتصل بأسد الدين فصار إمامه وصحبه إلى مصر ثم لازم صلاح الدين إلى أن توفي في ذي القعدة سنة ٥٨٥هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٩٧).

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٤٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٩٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٧.

المصريين ورجال الخلافة الفاطمية لعدم وجود شخصية قوية من بينهم تستطيع منافسته، كما أن المعارضة الموجودة بين رجال الحملة الزنكية قد انتهت لأن أغلب أولئك المنافسين على صلة قرابة قوية بصلاح الدين اما من ناحية الرحم أو من ناحية النسب، كما أن الياروقي وهو أقوى المنافسين قد عاد إلى الشام كما تقدم.

وقد أصدر الخليفة العاضد آخر منشور للخلافة الفاطمية يولي صلاح الدين الوزارة في مصر[1] وقريء المنشور بين يدي صلاح الدين يوم جلوسه في دار الوزارة ولقبه العاضد بالناصر،[2] وباستقراء نصوص هذا المنشور نجد أن الخليفة العاضد قد فوّض لصلاح الدين حكم الدولة الفاطمية فهو قد قلده تدبير مملكته والقيام بخدمته والاضطلاع بشؤون الوزارة، كما جعله مقدما للجيوش ومسئولا عن الجهاد، وحكّمه في القضاء والدعاة كما أسند إليه ادارة مالية الدولة وسياسة الرعية،[3] فأصبح بذلك هو الرجل الأول في الدولة المتصرف في شئونها ورجالها.

وقد سار صلاح الدين في الوزارة سيرة حسنة رغم أنه كان يمثل جهتين متعارضتين فهو وزير للخليفة العاضد الشيعي، كما أنه نائب لنورالدين السلطان السني ولكنه استطاع انتهاج سياسة ترضى نورالدين ولا تغضب الخليفة العاضد،[4] واستمال صلاح الدين قلوب الناس فبذل الأموال وملك الرجال وهانت الدنيا في عينيه فتعلقت به الرعية وأحبه الجميع، فكان الخليفة يميل إليه كثيراً وحكمه فى ماله وبلاده، كما أن نورالدين كان يحترمه ويلقبه في المكاتبة بالأمير الاسفهلار[5] ويوصي أمراءه ورجاله باحترامه واجلاله.[6]

---

(١) أورد العماد الأصفهاني فقرات من المنشور ونقلها عنه أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٩، والفتح البنداري: سنا البرق الشامي ص ٤٣.

(٢) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٤٣٩.

(٣) نص المنشور موجود في القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٩١ إلى ٩٨.

(٤) على بيومي: قيام الدولة الأيوبية في مصر، ص ٢٦٢.

(٥) سبق التعريف بهذا اللقب.

(٦) ابن الأثير: الباهر ص ١٤٢، ١٤٣، ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٠، ابن أبي طي: السيرة الصلاحية ص ٤٤٠.

وقد تحدث بعض المؤرخين عن موقف نورالدين من صلاح الدين بعد توليه الوزارة حيث يؤكـدون عدم رضاه عن صلاح الدين وتغيره عليه ومحاولته اعادته من مصر والتضييق عليه بعدم ارسال أهله واخوانه،[1] ولاشك أن هذا مما نسب إلى نورالدين ولم يصح حيث انه راسل صلاح الدين واعتبر توليه منصب الوزارة نصرا له ولدولته وتعزيزا لموقفه ضد الصليبيين، وسيأتي مناقشة ذلك ان شاء الله.

وقـد مدح الشعراء صلاح الدين وخلدوا صفاته وعدله في شعرهم ومنهم عمارة اليمني الذى مدحه بقصيدة منها:

لكُ الحسب البـاقي على عقب الدهر ... بل الشرف الـراقي الى قمـة النسر
كذا فليكـن سعـي الملوك إذا سعـت ... بها الهـمـم العليا إلى شرف الـذكـر
نهضـتـم بأعـبـاء الـوزارة نهضـة ... أقلتم بها الأقـدام من زلـة العثـر[2]

ولـــه أيضا:

ياشـبـيه الـصـديق عدلا وحسـنـا ... وسـمـيا حكـاه معـنـى ومغـنـى
هذه مصر يوسـف حل فيهـا ... يوسـف مالـكـا ومـا حل سجـنـا
انـما المـلك والـوزارة جسـم ... أنـت روح فيه وفي الـلفظ معنـى[3]

وقال أيضـا:

تركـت قلوب المشركـين خوانـقـا ... وبـات لواء الـنصر فوقـك يخفـق
سمـت بصـلاح الـدين ملة أحمـد ... وطـائـرهـا فوق الـسـماك محلق[4]

العقبات التي واجهت صلاح الدين في الوزارة:

أشرنا فى أسباب الحملات الزنكية على مصر إلى أن من أهم تلك الأسباب الرغبة فى اسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية، ومن هنا فان على صلاح الدين أن يعمل من

---

(١) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٤٤١، علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية ص ١٥٦.
(٢) ديوان عمارة اليمني ص ٢٧٠، مطبوع مع كتاب النكت العصرية.
(٣) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤١٣، ٤١٤.
(٤) الديوان ص ٣٠٠.

أجل تحقيق هذا الهدف، على أن صلاح الدين وقد عرف حالة الدولة وطبيعة مصر بدأ العمل بطريقة هادئة وسياسة بارعة وخطوات مدروسة تؤدي في النهاية إلى سقوط هذه الدولة.

لذا نراه يقوم بعد توليه الوزارة بالقبض على أمراء الدولة واقامة أصحابه عوضهم، وأخذ يغدق على أعوانه ويمنحهم الإقطاعات، ويضيق على حاشية الخلافة ويمنع عنهم الأموال، «فلم يزل أمره في ازدياد وأمر العاضد في نقصان»[1] ومن الطبيعي أن يستاء رجال القصر الفاطمي من هذا التدبير ويفكروا في التخلص من صلاح الدين بعد أن أصبح يمثل خطرا عليهم وعلى دولتهم وكان أبرز هؤلاء الرجال في ذلك الوقت جوهر الملقب بمؤتمن الخلافة[2] الذى بدأ في تدبير حركة ضد صلاح الدين يستعين فيها بالصليبيين ليهاجموا مصر من الخارج ويثور هو في الداخل، ولقد كانت هذه الحركة من العقبات الخطيرة التي كادت تودي بآل أيوب لولا عناية الله وفطنة صلاح الدين الذى علم بهذه الاتصالات حينما قبض رجاله على رسول من مؤتمن الخلافة يحمل رسالة للصليبيين، ورغم ذلك فقد أبقى هذا الأمر سرا حتى ينفرد بجوهر ويقبض عليه منفردا لعلمه بكثرة أعوانه من الجند السودان،[3] وقد كانت هذه سياسة اتبعها صلاح الدين مع كل الخارجين عليه يمهلهم حتى تتكشف له أسرارهم ويعلم كل المشتركين معهم ثم ينفرد بهم وهم آمنين.

وقد قبض بعد ذلك على مؤتمن الخلافة في ذي القعدة سنة ٥٦٤هـ وقتل من حينه فتخلص صلاح الدين بذلك من العقبة الأولى التى واجهته.[4]

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢، وجـ ١ ص ٢٥٨.

(٢) عبد خصي أسود كان من الأستاذين المحنكين له الأمر والنهي في قصر الخليفة العاضد (المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٧ هامش «٣»).

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢، ويذكر أن الرجل كان يحمل الرسالة وقد خبئت في نعلين جديدين بينما كان هو رث الثياب فاستراب منه أصحاب صلاح الدين وقبضوا عليه.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧٦، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٨، المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٢.

على أن الخطر لم ينته بزوال جوهر ذلك أن أعوانه من السودان قد ثاروا لمقتله وانضم اليهم عدد كبير من العامة والأمراء حتى زاد عددهم على خمسين ألفا والتقى بهم صلاح الدين فى معركة غير متكافئة من ناحية العدد وكادوا يفتكون به لولا لجوءه إلى الخديعة فأمر باحراق محلتهم وعلموا بذلك فانهزموا وتتبعهم بجنده حتى أخرجوهم إلى الجيزة، ثم لحق بهم أخوه تورانشاه بن أيوب فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم يبق منهم إلا أعداد قليلة،[1] ولقد ساعد موقف الخليفة العاضد من هذه الثورة صلاح الدين ذلك أن الخليفة وقف في أول الأمر مع السودان ظانا أنهم سيظفرون بصلاح الدين، بل ان المصادر تذكر مشاركة رجاله في المعركة حيث كانوا يرمون عساكر صلاح الدين من القصر بالنشاب والحجارة، فلما علم بذلك صلاح الدين أمر رجاله باحراق المنظرة التى يطل منها الخليفة فأدرك العاضد قوة مركز صلاح الدين فأمر أحد رجاله بالمناداة فى جند صلاح الدين بقوله: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ـ تورانشاه ـ ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم» ولقد أثر هذا على السودان وأدى إلى هزيمتهم.[2]

لقد سار صلاح الدين بانتصاره هذا خطوات إلى الأمام فى الطريق نحو اسقاط الخلافة الفاطمية فقد أضعفت هذه الواقعة الخليفة العاضد وجعلته بلا جند ولا أعوان في حين قوي أمر صلاح الدين وولي أعوانه الوظائف المهمة فى الخلافة وجعل بهاء الدين قراقوش[3] مسئولا عن القصر فلا يجرى صغير ولا كبير إلا بأمره،[4] واستمر فى التخلص من بقية العناصر المناوئة له فقضى على حرس الخليفة من الأرمن حتى لا يفعلوا مثل ما فعل السودان.[5]

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٣، أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٢، المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣.

(٣) هو أبو سعيد قراقوش بن عبدالله الأسدي خادم صلاح الدين وخادم عمه شيركوه له أعمال جليلة في مصر ومواقف مشهورة في الجهاد ضد الصليبيين توفي في رجب سنة ٥٩٧هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٩١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٧٦).

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٤٨.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٨.

على أن الجزء الآخر من مؤامرة مؤتمن الخلافة والمتمثل في الخطر الصليبي لم ينته بمقتله والقضاء على أعوانه، وذلك أن الصليبيين قد راعهم سقوط مصر في يد صلاح الدين قائد الزنكيين وأدركوا حجم الكارثة بالنسبة لهم لما تمثله مصر من مكانة استراتيجية بموقعها ورجالها وأموالها، ولا شك أنهم يشعرون بخطورة الوضع الجديد حيث أنهم سيصبحون بين منطقتين إسلاميتين تخضعان لسلطة واحدة، ولم يكن هذا الشعور مقصورا على صليبي الشام فقط بل إن النصارى فى أوربا شعروا أيضا بهذا الخطر وبخاصة أن صلاح الدين بدأ يهدد مصالحهم فى البحر الأبيض بسيطرته على موانيء مصر الهامة، وقد أدرك المؤرخون المسلمون المعاصرون لصلاح الدين هذا الاتجاه الصليبي. يقول ابن شداد: «ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك»،[1] وهكذا بدأ الملك عموري ملك بيت القدس حملة لتأليب ملوك أوربا ضد صلاح الدين ورجاله فأرسل الرسل إلى ملوك ألمانيا وفرنسا وانجلترا وصقلية يستحثهم للقيام بحملة صليبية ينقذون بها اخوانهم صليبي الشرق، وحيث أن الظروف الداخلية في أوربا لم تسمح للقيام بهذه الحملة فقد اتجه عموري نحو بيزنطة التي أظهرت استجابة طيبة تجاه هذا المشروع،[2] والجدير ذكره أن هذه الاتصالات لم تخف على مؤرخينا في تلك الفترة فهذا ابن الأثير يقول: «وكاتبوا - أي افرنج الشرق - الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة».[3]

وفي صفر سنة ٥٦٥هـ هاجمت السفن البيزنطية ميناء دمياط في حين وصلها عموري عن طريق البر، وما أن علم صلاح الدين بهذه المؤامرة حتى استعد وأرسل النجدات إلى دمياط وشحنها بالعتاد والرجال، وأرسل إلى نورالدين يستنجد به فأرسل

(١) النوادر السلطانية ص ٤١.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٧، حسن حبشي: نورالدين والصليبيون ص ١٣٤.

(٣) الكامل جـ ٩ ص ١٠٥، وانظر: ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٨٠.

له المدد، كما أنه أخذ يهاجم المعاقل الصليبية في الشام مما فت في عضد الصليبيين وأدركوا صعوبة تحقيق أحلامهم في هذه المرحلة، وبعد خمسين يوما من الحصار غير المجـدي انسحب الصليبيون يجرون أذيال الخيبة[1] فكانوا على حد تعبير ابن الأثير كالنعـامة خرجت تريد قرنين فعادت بلا أذنين،[2] ومنذ ذلك الحين أصبح صلاح الدين هو صاحب المبادرة في الجهاد ضد الصليبيين أي أنه تحول إلى موقف الهجوم ففي سنة ٥٦٦ هاجم عسقلان وهزم الفرنج وفتح أيلة[3] فحقق بذلك أول نصر على الصليبيين خارج مصر.

وهكـذا خرج صلاح الدين منتصرا على أعدائه في الداخل والخارج وقد عمت سلطته وعلا مركزه وتفرغ للأعمال الأخرى الداخلية التى مهد بها للهدف النهائي وهو اسقاط الخلافة الفاطمية.

* * * *

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٢، ٤٣، أبوالفداء: المختصر ص ٤٨، ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ١٢ ص ٢٦٠، الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ٧٨.

(٢) الكامل جـ ٩ ص ١٠٥.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٤.

أعمال صلاح الدين في الوزارة:

إن المتتبع لأعمال صلاح الدين مدة وزارته للخليفة العاضد يدرك أنها كانت تهدف إلى أمرين: الغاء الخلافة الفاطمية، وإضعاف أو إزالة المذهب الشيعي، وكانت كلها أعمال مهمة يقرب كل واحد منها الهدف النهائي ويسهل تحقيقه وأظهر صلاح الدين ذكاءاً وسياسة فى هذا الصدد بحيث لم تحدث هذه الأعمال ردات فعل عنيفة أو ثورات مضادة من رجال الدولة أو اتباع المذهب الشيعي. والواقع أن صلاح الدين قد استفاد كثيرا من تجارب السلاجقة السنة في العراق في محاربتهم لآل بويه الشيعة، كما استفاد أيضا من جهود أستاذه نورالدين في محاربة الشيعة في حلب وغيرها من مدن الشام، وكانت تلك السياسات تعتمد على النواحي الفكرية والعقلية أكثر من اعتمادها على القوة والقمع فالسلاجقة قد أكثروا عن طريق وزرائهم ورجالهم من افتتاح المدارس وإعلاء شأن العلم وإكرام العلماء، كما أن نورالدين قد سار على نفس النهج فلما جاء صلاح الدين إلى مصر طبق تلك السياسة وسار على نفس المنهج فجاءت أعماله سلمية ومؤثرة في نفس الوقت بحيث لم يمض وقت طويل حتى كان تحقيق الهدف النهائي وهو إعلان زوال الخلافة الفاطمية الشيعية سهلا وميسرا، ولا شك أن صلاح الدين قد استفاد كثيرا من تلك الامتيازات الإدارية والقيادية التي منحها إياه الخليفة العاضد في منشور توليه الوزارة، كما أنه استفاد أيضا من دعم ومساندة نورالدين وتلبيته لطلباته في هذا المجال.

لعل من أول الأعمال التي قام بها صلاح الدين استدعاء أهله وأقربائه من الشام إلى مصر وتعيينهم في المناصب المهمة في الدولة ليكونوا عوناً وسنداً له ضد الخلافة الفاطمية وما بقي من أعوانها، وقد أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يسير إليه إخوته، وتردد نور الدين في أول الأمر ولم يستجب لصلاح الدين وكان مبعث ذلك خوفه أن يخالف أحد منهم عليه فتضطرب أحوال مصر ولهذا نراه يوصي تورانشاه بن أيوب أخا صلاح الدين الأكبر قبل سفره لمصر بقوله: «إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد

البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك خبره إن شاء الله تعالى» ويعلق ابن الأثير على ذلك فيقول: «فكان كما قال»[1] ولا شك أن هذه الحادثة تنبىء عن حسن العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين، وحرص الأخير على سلامة صلاح الدين واستقرار أموره في مصر وثقته في ولائه وولاء أسرته للزنكيين.

وقد استفاد صلاح الدين من أخيه تورانشاه فكان بمثابة الساعد الأيمن له في إخماد الثورات الداخلية وجهاد الفرنج وتثبيت دعائم الدولة وتوسيع رقعتها بفتح مناطق أخرى كما سنرى، وأقطعه قوص وأسوان وعيذاب.[2]

وفي سنة ٥٦٥هـ أرسل صلاح الدين إلى نورالدين يطلب منه إرسال والده نجم الدين إلى مصر، فاستجاب لذلك وجهزه وأكرمه ولما سار من دمشق خشي نور الدين عليه وعلى من معه من هجمات الفرنج فسار معهم وحاصر الكرك وأشغل الصليبيين حتى وصل نجم الدين القاهرة في رجب من سنة ٥٦٥هـ.[3]. على أن ابن أبي طي يذكر بأن نورالدين هو الذى ألزم نجم الدين بالخروج إلى مصر لحث ولده صلاح الدين على قطع الخطبة للفاطميين وحمّله رسالة منه فى هذا المعنى وهدية لصلاح الدين،[4] والحقيقة التى اتفقت عليها المصادر العاصرة أن صلاح الدين هو الذى طلبه وهذا يتفق أيضا مع سياسته التى تهدف إلى التقوي بأهله وأنه يستدعيهم ليقيموا في مصر، وهذا ما فعله والده الذي تولى الإشراف على أموال مصر،[5] مما يدل على أنه لم يأت مجرد رسول من نورالدين. وهكذا توافد الأيوبيون ومناصروهم على مصر وتسلموا الإقطاعات الجزيلة وأخذوا يحلون محل رجال الفاطميين في إدارة شؤون الدولة.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٤٣، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٧٤.

(٢) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية، عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٨٥، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٤.

(٤) السيرة الصلاحية، الروضتين جـ ٢ ق ١ ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٥) ابن شداد: ص ٤٤.

ولإدراك صلاح الدين خطورة المذهب الشيعي فقد بدأ يحاربه بكل الوسائل الممكنة، فأبطل الكثير من مظاهره ومنها ما يقال في الآذان كحي على خير العمل وأنكر على من ينتمي لهذا المذهب[1] كما غيّر شعار الإسماعيلية،[2] وفى المقابل فقد عمل على تقوية المذهب السني وذلك بإنشاء المدارس السنية على المذاهب الأربعة.

كان أول هذه المدارس هي المدرسة الناصرية الشافعية التي أنشأها سنة ٥٦٦هـ حيث أستغل دار المعونة التي كانت سجنا للفاطميين فهدمها وحولها إلى مدرسة،[3] وهي أول مدرسة سنية تقام في الدولة الفاطمية فكان ذلك من أعظم ما نزل بالدولة،[4] أما المدرسة الثانية فتعرف بالمدرسة القمحية وكان موضعها مكان يباع فيه الغزل فهدمها الناصر صلاح الدين وبنى مدرسة خصصها للمالكية، وكان يتولى فيها التدريس أربعة من علماء المالكية خصص لهم قمح يفرق عليهم فعرفت بالقمحية،[5] أما المدرسة الثالثة فهي المدرسة السيوفية وقد وقفها صلاح الدين للمذهب الحنفي وجعل فيها مدرسا وأوقف لها أوقافا جليلة، وعرفت بهذا الاسم لكون سوق السيوفيين على بابها.[6]

وقد اقتدى أبناء البيت الأيوبي وأمراء الحملة الزنكية بصلاح الدين فأخذوا ينشئون المدارس السنية في كل مدن مصر وبخاصة القاهرة والاسكندرية.

ففي شهر شعبان سنة ٥٦٦هـ اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وهو ابن أخي صلاح الدين منازل العز بالقاهرة وهي من دور الخلفاء الفاطميين وحولها

---

(١) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٤٩٨، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٣.

(٢) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٤٨٨.

(٣) تاريخ الملك الأشرف: الفصل الخامس حوادث سنة ٥٦٦هـ، معهد المخطوطات العربية رقم ٣١٥٠.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٣، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٩.

(٥) تاريخ الملك الأشرف: الفصل الخامس، حوادث سنة ٥٦٦هـ، المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٥.

إلى مدرسة خصصها للشافعية،[1] كما أسس بالفيوم مدرستان واحدة للشافعية وأخرى للمالكية.[2]

لقد كان من نتائج ذلك هو اختفاء مذاهب الشيعة من نفوس المصريين، وخاصة بعد القضاء على مجالس الدعوة التي كانت من أقوى الوسائل في نشر المذهب الشيعي بين الناس.[3]

ومن الأعمال الجليلة لصلاح الدين إبان وزارته عزل القضاة الشيعة وتعيين قضاة من المذهب السني في جميع البلاد، وجعل القاضي صدر الدين بن درباس الشافعي مسئولا عن القضاء والحكم في مصر وأعمالها.[4]

وهكذا لم يبق من الخلافة الفاطمية إلا اسمها وزالت كل مظاهر التشيع والدعوة وأصبح اسقاط الخلافة أمر ممكنا وسهلا، بحيث لم يبق من معالمها سوى ذكر اسم العاضد في الخطبة والتى أصبح يشاركه فيها نورالدين محمود الذي يذكر اسمه بعد اسم العاضد، ويبدو أن الأمر المتبقي على إعلان السقوط ليس سوى تبديل اسم العاضد باسم الخليفة العباسي ببغداد، ولا شك أن لأعمال صلاح الدين المتأنية والمتدرجة أعظم الأثر فى الوصول إلى هذا الهدف، وقد لخص ابن الأثير ذلك في بضع كلمات حينما وصف موقف الخليفة العاضد حينما ولى صلاح الدين ووقف معه بأنه «كالباحث عن حتفه بظلفه».[5]

سقوط الخلافة الفاطمية:

رأينا فيما مضى كيف كان صلاح الدين يركز جهوده كلها لاضعاف الخلافة الفاطمية تمهيداً لإسقاطها وقد أشارت بعض المصادر التاريخية الى ذلك، يقول

(١) تاريخ الملك الأشرف، الفصل الخامس، حوادث سنة ٥٦٦هـ، المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٢) ابن خلكان: وفيان الأعيان جـ ٣ ص ٤٥٦ وفيه ترجمة وافية له.

(٣) علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية ص ١٧٥، وقد تحدث المقريزي عن الدعوة ومراتبها وأصلها وأشهر الدعاة، انظر: المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٩١ وما بعدها.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٤٢، وله فيه ترجمة موجزة، المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٩.

(٥) الباهر، ص ١٤٣.

المقريزي: «ثم أنه دأب في إزالة الدولة الفاطمية وقطع دابرها ومحو آثارها فأعانه الله على ذلك».[1] ومع هذا فإن ابن الأثير يذكر صراحة أن صلاح الدين تردد في قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم لخشيته من قدوم نور الدين عليه لأخذ مصر فأراد ابقاء العاضد ليكون عونا له.[2] ولا شك أن هذا الرأى الذى ذكره ابن الأثير لا يتفق مع الحقيقة وسياق الأحداث، فكيف يستعين صلاح الدين السني المتمسك بدينه برجل شيعي ضد ولي نعمته نورالدين؟ وهل لدى العاضد من القوة والمنعة ما يفيد صلاح الدين ويعينه على نور الدين وبخاصة بعد أن قضى صلاح الدين على قوة الفاطميين؟ وهل كان نورالدين ينوي أو يفكر في غزو مصر وطرد صلاح الدين؟ إن إجابات هذه الأسئلة كلها تؤكد عدم تردد صلاح الدين في قطع الخطبة للفاطميين، بل إن ذلك أهم أهدافه التي يسعى لتحقيقها فليس من المعقول أن يستعين صلاح الدين بالشيعة ضد نورالدين وهو الذى حارب المذهب في مصر وطرد رجاله وعزل قضاته ودعاته فمن غير المعقول أن يقف معه أحد منهم ولا شك أن صلاح الدين يدرك ذلك جيداً، والخليفة العاضد لا يملك من القوة ما يعين به صلاح الدين، فجيشه قد انتهى وتفرق جنده بين قتيل ومطرود خارج القاهرة ورجال دولته وأمراؤها قد عزلوا وشتتوا وتولى وظائفهم رجال الحملة الزنكية وأمراؤها، والحوادث التاريخية لا تدل ولا تشير على أن نورالدين قد عزم أو فكر في غزو مصر، فليس بحاجة للمسير إلى مصر ويكفي أن يصدر أمرا بعزل صلاح الدين ان هو أراد، وهكذا فان ما ذكره ابن الأثير لا يعدو كونه اجتهادا منه وقد أخطأ فيه وذلك ناتج من موقفه المعروف بالإنحياز لآل زنكي ضد الأيوبيين، ولا غرو في ذلك فقد شهد هذا المؤرخ سقوط الدولة الزنكية على يد صلاح الدين وهي الدولة التي أكرمته وبوأته مركزا مرموقا، وعاش في كنفها فترة من الزمن فأصبح يفسر الأحداث بما يستقيم مع هذه النظرة المتأثرة والمنحازة، وإلا فان صلاح الدين قد عمل من أول لحظة وصل فيها إلى مصر على اضعاف هذه الخلافة تمهيدا لإسقاطها، وقد أدرك بعد معايشته للظروف داخل هذه الخلافة أن إعلان

(١) السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٤.

(٢) الكامل جـ ٩ ص ١١١.

سقوطها مبكرا ربما يحدث ردات فعل عنيفة تقضي على كل الجهود التى بذلها نورالدين ورجاله فيما مضى ، ولذا آثر صلاح الدين أن يتأنى ويتمهل فى هذه العملية ، وأن يقضي على كل مظاهر القوة أولا ، ثم يسقط الخلافة بعد أن يأمن من عواقب ذلك ، أما نورالدين البعيد عن مصر والمنشغل بالجهاد والمحتاج للمال والرجال فقد كان متعجلا لهذا الأمر يريد الانتهاء منه بسرعة حتى يستفيد من كل مقدرات مصر ويسخرها لقضيته الكبرى وهى الجهاد، وهكذا فإن هذين القائدين متفقان على الأهداف وإن حصل خلاف حول الأسلوب والطريقة ولكنه خلاف غير ظاهر ولم يكن له أي آثار أو نتائج . ويؤكد ذلك ابن الأثير نفسه حينما يذكر عن صلاح الدين أنه عمل على اضعاف الخلافة منذ تولي الوزارة حيث ثبت أقدامه بمصر وأزال المخالفين له وأضعف الخليفة العاضد حتى أن قصره قد أصبح محكوما من قبل صلاح الدين ونائبه قراقوش ،[1] فلماذا كل هذه الأعمال إذا لم يكن عازما على إزالة الخلافة الفاطمية؟

ويؤكد ذلك ويؤيده ما يذكره العماد حيث يقول: «كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نورالدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين» فلما أمره فى شوال سنة ٥٦٦هـ بقطع الخطبة للفاطميين نفذ ذلك بعد مدة يسيرة .[2]

وهكذا بعد ما أصبحت الظروف مواتية لإعلان سقوط الخلافة الفاطمية شرع صلاح الدين في تنفيذ ذلك في أول جمعة من عام ٥٦٧هـ وقد أشار ابن الأثير إلى أن الذي تولى ذلك رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم حيث يذكر أنه صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة المستضيء العباسي ، وأن الخليفة العاضد كان مريضا فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة له ،[3] على أن أبوشامة يذكر أن الذي تولى ذلك هو أبوعبدالله محمد بن الحسن بن الحسين ابن أبي الضياء البعلبكي .[4] ويوافقه فى ذلك

---

(١) الكامل: جـ ٩ ص ١١١ ، الباهر ص ١٥٦ ، والمقريزي : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٢٢ .

(٢) أبوشامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٣ .

(٣) الباهر: ص ١٥٦ .

(٤) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٢ .

ابن إياس ويضيف إلى ألقابه العلوي،[1] ولعل هذا هو اسم الأمير العالم الذي ذكره ابن الأثير.

ويفصل ابن أبي طي الحلبي في ذكر سقوط الخلافة الفاطمية ويذكر رواية تختلف عما ذكره ابن الأثير ونقله عنه الآخرون، وهي أن الخليفة العباسي المستضيء ألح على نورالدين بقطع الخطبة للفاطميين في مصر وأن نورالدين راسل صلاح الدين في ذلك ولكنه كان يعتذر باضطراب أمور مصر وعدماستقرارها، وأن الأمر إن لم يؤخذ على التدريج فسدت الأحوال، فلما قام بالأعمال التي ذكرناها وأضعف أمر الخلافة والمذهب الشيعي شرع فى اسقاطها وأسند هذه المهمة لوالده نجم الدين أيوب، ولعله أراد أن يؤثر والده بهذا الشرف العظيم واتصل نجم الدين بالخطيب وأمره بالدعاء للخليفة المستضيء وحذف اسم الخليفة العاضد وذلك فى أول جمعة من سنة **٥٦٧هـ** ومع أن الخطيب لم يذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة إلا أنه حذف اسم الخليفة العاضد فلما جاءت الجمعة الثانية دعى له فسقطت الخلافة الفاطمية ثم مات الخليفة العاضد متأثرا بذلك.[2]

وربما يكون هذا الخطيب هو الأمير العالم الذى ذكره ابن الأثير وأن تولي نجم الدين لهذه المهمة زيادة لم يذكرها ابن الأثير.

ومهما يكن الأمر فقد سقطت هذه الخلافة الشيعية سقوطا صامتا بحيث لم ينتطح فيه عنزان على حد تعبير ابن الأثير،[3] مما يؤكد ويؤيد سياسة صلاح الدين ونجاح أسلوبه وطريقته التى انتهجها في هذا المجال.

لقد كان لسقوط الدولة الفاطمية نتائج مهمة وخطيرة على العالم الإسلامي بشكل عام وعلى مصر والشام بشكل خاص: فقد فرح المسلمون لسقوط هذه الخلافة وزفت البشرى تقـرأ في كل مكان تمر به في الطريق إلى بغداد، وفي بغداد كان الفرح عظيما

---

(١) بدائع الزهور: جـ ١ ق ١ ص ٢٣٥.

(٢) السيرة الصلاحية عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ١٩٨، ١٩٩.

(٣) الكامل جـ ٩ ص ١١١.

فخرج الناس وعلى رأسهم الخليفة لتلقي الرسل والبشارة وكان يوما مشهودا. ونظم الشعراء القصائد وألف العلماء الكتب تخليدا لهذا الحدث.[1]

ومن الناحية السياسية قضى صلاح الدين الأيوبي على الخلافة المنافسة للخلافة العباسية والتي ظلت عدة قرون تنازعها زعامة العالم الإسلامي وعادت مصر من جديد تحت ظلال العباسيين يدعى لخلفائها على المنابر وتضرب أسمائهم على السكة، ورفع شعار العباسيين في أرجاء مصر، حيث وصلت أعلامهم وراياتهم السود ففرقت على المساجد والجوامع لتنصب على منابرها،[2] وكان زوال هذه الدولة ايذانا بضعف المذهب الإسماعيلي الشيعي في مصر وبقية المناطق الأخرى كالشام واليمن، ففي مصر استطال أهل السنة على الإسماعيلية وضيقوا عليهم مما اضطرهم إلى مغادرة مصر، وفقد الإسماعيلية في الشام واليمن سندهم والقوة التي كانوا يعتمدون عليها ويتبعون لها مما مهد للقضاء عليهم أو اضعافهم وإزالة نفوذهم، ومن الناحية الفكرية فقد كان للحركة العلمية التي بذر بذورها صلاح الدين وأعوانه بإنشاء المدارس السنية عظيم الأثر على تدعيم هذا المذهب واضعاف ما سواه، وبعد سقوط الدولة تتبع رجال صلاح الدين كتب الإسماعيلية التي تحمل أفكارهم المضللة وحدوا من انتشارها بين الناس.[3]

ولقد استطاع صلاح الدين بإسقاط الدولة الفاطمية أن يوحد مصر والشام سياسيا ومذهبيا تحت سلطة واحدة هى سلطة نورالدين محمود وكان لذلك عظيم الأثر على الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وكان الصليبيون يدركون خطورة هذه الوحدة ولذا رأينا جهودهم فى السابق تنصب على عرقلتها بحملاتهم التي أشرنا إليها فيما مضى، وإذا كان نورالدين رحمه الله لم يقطف ثمار هذه الوحدة بسبب وفاته فإن صلاح الدين

(١) الذهبي: دول الإسلام: جـ ٢ ص ٨٠، ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ١٣ ص ٢٦٤، ٢٦٥، وذكر ابن كثير ان ابن الجوزي صنف كتابا سماه النصر على مصر، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٢٣٥.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص ١٥٧، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦، القلقشندى: مآثر الانافة في معالم الخلافة جـ٢ ص ٥١، ط الأولى.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٢٣٧، ٢٣٨.

هو الذى قطفها بعد ما أقام دولته فى الشام ومصر وسخر امكانات هذين الاقليمين البشرية والمادية لخدمة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وظهر ذلك فى شكل انتصارات باهرة توجها باستعادة القدس الشريف من أيديهم، والحقيقة أن ذلك لم يكن سهل التحقيق لو لم تتم هذه الوحدة بين مصر والشام، وأشار صلاح الدين نفسه إلى ذلك حيث يقول: «لما يسر الله لي فتح الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي». [1] ولقد تدعم مركز نورالدين محمود ومركز صلاح الدين الأيوبي نتيجة لهذا الحدث، فقد أرسل الخليفة المستضىء العباسي لهما بالخلع والتشاريف، وقرىء تشريف نورالدين في ميدان دمشق، كما أرسل تشريف صلاح الدين إلى القاهرة فقريء فيها ولبس صلاح الدين الخلعة العباسية وطاف بها فى شهر رجب عام ٥٦٧هـ وكانت هذه أول خلعة عباسية تدخل مصر بعد استيلاء الفاطميين عليها، [2] ووصف العماد الأصفهاني هذه التشاريف فقال: «وحملوا لصلاح الدين تشريفا فاضلا فائقاً، رائعا، رائقا، لجماله وكماله لائقا، لكن تشريف نورالدين أميز وأفضل وأجمل وأكمل»، [3] ومما أرسله الخليفة لنورالدين سيفين عبر بهما عن توليته لإقليمي الشام ومصر وجمعهما تحت إمرته، [4] وقد تدعم مركز صلاح الدين بهذه الخلعة والتشريف كما أن مركزه تدعم حينما أشار الخليفة إلى أن يكون صلاح الدين نائبا لنورالدين في حكم مصر فأصبح بذلك بمثابة النائب عن نور الدين وعن الخلافة العباسية. [5]

وعلى العموم فيمكن القول أن سقوط الخلافة الفاطمية قد مهد لقيام الدولة الأيوبية مما حدا ببعض المؤرخين إلى جعل تاريخ سقوطها هو تاريخ قيام الدولة الأيوبية. [6] على أن هناك قضية هامة استتبعت سقوط الخلافة الفاطمية وتتعلق

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٣) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٥، ٥٠٦، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٧.

(٤) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٥، الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ٨٠.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٤.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧١، ٢٢٠. القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٢٨، الديار =

بموقف عامة المسلمين في مصر، فبعض الباحثين[1] يذكر أنهم قد حزنوا كثيرا لذلك ولم يُسَلموا بهذا الأمر ولذا فإنهم بدأوا يخططون للثورات ويدبرون المؤامرات ضد صلاح الدين وأعوانه، ولا شك أن هذا يخالف الحقيقة التي ذكرتها المصادر التاريخية القديمة فالمعروف أن المسلمين فى مصر وخارجها قد فرحوا بذلك فرحاً عظيماً، بل إنهم قد ساعدوا صلاح الدين ومن قبله عمه أسد الدين ووقفوا معهما ضد الفاطميين ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ والحقيقة أن الدولة الفاطمية قد قامت ـ وبخاصة في آخر أيامها ـ بأعمال جعلت الناس يكرهونها ويتمنون زوالها، إضافة إلى ا لاختلاف المذهبي الذى ظل سائداً فى مصر رغم الجهود التي قام بها دعاة الإسماعيلية والتي لم تفلح في تحول المسلمين المصريين عن مذهبهم السني، ولذا أصبح هناك فجوة وخلاف بين الحاكم والمحكوم، ووجد آل أيوب قبولا وعدم معارضة من المصريين لما بينهم من اتفاق مذهبي فالجميع من السنة.

وقد وجد المصريون فى صلاح الدين مخلصا لهم من ظلم قد حاق بهم من قِبَلَ حكام الفاطميين وأعوانهم، فأبطل ما كان يؤخذ من المكوس وهى عديدة جدا، بحيث لم يسلم منها غني ولا فقير،[2] وكان من أقبحها ما كان يؤخذ على الحجاج العابرين إلى الحجاز،[3] وأصدر بذلك منشوراً قريء في مصر ففرح الناس بذلك

= بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٨٧، مؤسسة شعبان، بيروت، كما أن الشعراء قد خلدوا ذلك في شعرهم، يقول العرقلة الدمشقي: (ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٢٠):

أصبح الملك بعد آل علي مشرقا بالملوك من آل أيوب

وقال:

وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ومصر تزهو على بغداذ
ما حووها الا بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ

(١) انظر مثلا: عبدالمنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ص ٤٨٧ الاسكندرية ١٩٦٨م، وفاء محمد علي: قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ص ٧٣، ٧٤.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٠٤ وما بعدها، وقد فصّل المقريزي أنواع المكوس التي كانت تؤخذ من الناس.

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٣٠، بيروت ١٣٩٩هـ.

ولهجت ألسنتهم بالدعاء والثناء لصلاح الدين،[1] يقول ابن إياس: «ثم أن صلاح الـدين أخذ فى أسباب اصلاح الديار المصرية، وأبطل من المكوس والمظالم ما كان استجـد في الـدولـة الفاطمية وكتب بذلك مسامیح، وقرئت على المنابر بعد صلاة الجمعة فضج الناس له بالدعاء، واستمالت إليه قلوب الرعية، وأظهر العدل بالديار المصرية، وكان قدر ما أبطله من المكوس في كل سنة ما ينيف عن مائة ألف دينار»[2] ولم يكتف صلاح الدين بإزالة هذه المكوس بل إنه أنعم على الناس وبذل لهم الأموال، يقول المقريزي: «وفيها ـ أي سنة ٥٦٧هـ ـ فرقت الزكوات في ثالث ربيع الأول على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين».[3]

فهل يحزن الناس على هذه الحال الطيبة التي تحولوا إليها؟ لا شك أن ما ذكره بعض البـاحثين من عدم رضى المصريين بحكم صلاح الدين ليس إلا تعسفا فى تفسير الأحداث، واغفالا لما نطقت به المصادر المعاصرة لها.

وبالمقارنة بين شخصية العاضد آخر حكام الفاطميين وبين صلاح الدين يتضح لنا البون الشاسع والفرق الكبير بين الرجلين، ومن ثم لنا أن نتوقع موقف المصريين من هذه القضية، فالعاضد الفاطمي كان شيعيا متعصبا شديدا على من خالفه،[4] ومتغـاليا في سب الصحابة رضوان الله عليهم، وإذا رأى سنيا استحل دمه، وسار وزراؤه على نهجه، فهذا وزيره الصالح بن رزّيك يسير سيرة مذمومة فيحتكر الغلات فيرتفع سعرها، ويتطلع بشغف إلى ما في أيدى الناس من الأموال فيصادرها، بل إنه قتل أمراء الدولة خشية منهم، وأفنى ذوي الآراء والحزم فيها،[5] وهذا شاور يكثر من سفك الدماء ويأمر بضرب الرقاب بين يديه في دار الوزارة ثم تسحب الجثث خارج

---

(١) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٢٢، وقد أورد هذا المنشور.

(٢) بدائع الزهور: جـ ١ ق ١ ص ٢٣٨.

(٣) السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٢٩.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١١٠، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٤.

الـدار.[1] أمـا صلاح الـدين فكان متديناً عفيفاً عما في أيدي الناس، كريما سخياً جواداً، يكـره سفك الدماء، أحبه الناس، ومدحه الشعراء، وألفت فيه الكتب، فكيف يكرهون ولايته، ويبكون على أيام الفاطميين؟

هذه حقيقة موقف المصريين، وأما الثورات التي قامت ضد صلاح الدين فهي مدبرة من قبل رجال الدولة الفاطمية نفسها وليس لعامة الشعب أي علاقة بها، ولم تجد أي تأييد أو مناصرة منهم، ولذا كان مصيرها الفشل الذريع ـ كما سنرى ـ ولذا نستطيع القول بأن الناس قد استقبلوا هذا التغيير الجديد دون اكتراث أو اهتمام بزوال الدولة الفاطمية، وتكاد المصادر التاريخية تجمع على ذلك.[2]

التوسع الأيوبي خارج مصر:

بعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين بدأ يفكر في تأمين هذا الكيان الذي أقامه في مصر، ومن الواضح أنه أخذ في العمل لتوحيد المنطقة الإسلامية لتقف صفا واحدا تجاه التهـديدات الصليبية في الشـام وكـذلـك الحملات القادمة من أوربا، وجميع الخطوات التي خطاها صلاح الدين في هذا الاتجاه تدل على هذه الرغبة وقد أثبتت الأحـداث فعـاليتها وتأثيرها الإيجابي على قضية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، حيث حقق صلاح الـدين الانتصـارات العـظيمة عليهم مدعوما بإمكانات بشرية ومادية كبيرة وبوحدة شاملة لأهم أقاليم المنطقة.

لقـد استـطاع صلاح الـدين مد نفـوذه إلى إقليمـين مهمـين من أقـاليم العالم الإسلامي، أولهما إقليم النوبة والثاني هو إقليم اليمن.

---

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٨٧، وقد نصحه عمارة بالكف عن ذلك بقصيدة شعرية قال فيها:

ألا إن حد السـيف لم يبـق خاطـرا	من النـاس إلا حائـرا يتردد
ذعـرت الـورى حتـى لقـد خاف مصلح	على نفسـه أضعـاف ما خاف مفسـد
فأغمـد شفـارِ المشرفي وعـدبنـا	إلى عادة الإحسـان وهـي التـغـمـد

(نفس المصدر).

(٢) آرنست باركر: الحروب الصليبية ص ١٦٤، ترجمة السيد الباز العريني ط ٢.

أ ـ التوسع فى بلاد النوبة :

يذكر ابن الأثير أن سبب فتح الأيوبيين للنوبة هو خوفهم من نورالدين محمود حيث أرادوا أن تكون ملجأً لهم إن هو هاجم مصر ولم يستطيعوا رده،[1] وهذا الرأي يتفق مع نظرة ابن الأثير المتأثرة بعواطفه تجاه صلاح الدين نحو العلاقة مع نور الدين ـ وسنناقش ذلك في موضوع العلاقة ـ ولاشك أن ما ذكره ابن الأثير لا يتفق مع الحقيقة فهو مجرد ظن بناه على رأى خاطيء، كما أن الحقائق التي ذكرتها المصادر التاريخية لا تنبيء عن أى سوء في العلاقة بين القائدين، ولا تشير إلى عزم نورالدين المسير لمصر لأن لديه قضية أعظم وأكبر من الدخول في صراع مع الأيوبيين وهي قضية الجهاد، كما أن صلاح الدين لم يظهر من الأعمال ما يستوجب تخوفه من نور الدين، ولذا فإن الباحث المنصف لا يسعه إلا أن يترفع بهذين القائدين المسلمين عن المصالح الشخصية فيما يعملانه وأن يحسن الظن بهما ويجتهد في تفسير أسباب أعمالهما تفسيرا يتفق مع أهدافهما.

ولذا فإن فتح الأيوبيين لبلاد النوبة لم يكن سوى حلقة في سلسلة الحلقات التي قام بها زعيمهم صلاح الدين في سبيل تقوية الجبهة الإسلامية، والقضاء على جميع أعداء الوحدة والأمة، وقد أشار ابن أبي طي إلى وجود خطر يهدد صلاح الدين في الجنوب من مصر ـ أي في منطقة النوبة ـ حيث اجتمع السودان والعبيد سنة ٥٦٨هـ في النوبة وعزموا على ملك مصر وقصدوا أسوان فاستنجد كنز الدولة[2] بصلاح الدين فأرسل حملة عسكرية بقيادة أخيه تورانشاه،[3] وهكذا يتضح أن صلاح الدين أراد صد الخطر الذى يتهدده من ناحية الجنوب ولم تكن أهدافه كما ذكر ابن الأثير.

---

(١) الكامل: جـ ٩ ص ١١٨.

(٢) كنز الدولة: لقب يطلق على أمراء ربيعة العرب جنوب مصر، وقد اشتهر هذا اللقب منذ أن قبض زعيم ربيعة واسمه أبوالمكارم هبة الله على أبي ركوة الذي خرج على الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٩٧هـ فأكرمه الحاكم ولقبه بكنز الدولة وظلت الإمارة فيهم وظلوا يلقبون بهذا اللقب (المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٤٤ تحقيق عبدالمجيد عابدين ١٩٧١م).

(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣١.

لقد استطاع تورانشاه أن يقضي على هذا التهديد وأن يفتح بعض المدن والقلاع كما أن ملك النوبـة أرسل إليه يطلب الصلح والمسالمة،[1] وبذا أمّن صلاح الدين حدوده الجنوبية وأصبح في مقدوره الاتجاه نحو الشام إن هو أراد ذلك لجهاد الصليبيين.

ب ـ الفتح الأيوبي لليمن:

كان الميدان الآخر للتوسع الأيوبي هو اليمن حيث أرسل صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ حملة عسكرية بقيادة أخيه تورانشاه استطاعت أن تضم اليمن لأملاك الأيوبيين، وقد تحدثت المصادر التاريخية عن أسباب هذه الحملة واختلفت فى ذلك كثيرا:

فالعماد الأصفهاني يذكر لهذا الفتح سببين:

الأول: هو رغبة تورانشاه زيادة إقطاعه، حيث أن إقطاعه السابق في صعيد مصر لا يكفيه.

والثاني: هو اغراء الشاعر عمارة اليمني له بفتح اليمن حيث كان يمدحه كثيرا ويعزم عليه لتحقيق هذا الهدف.[2]

أما ابن شداد: فيذكر أن السبب هو استغلال صلاح الدين لقوة جيشه في القضاء على دولة عبدالنبي بن مهدي الذى يحكم اليمن ويعمل على توسيع دولته.[3]

ويعزو ابن الأثير أسباب فتح اليمن إلى رغبة صلاح الدين في أن تكون ملجأ له ولأهله إن قصده نورالدين وليقيم فيها ملكا له بعيدا عن خطره.[4]

---

(١) أبوصالح الأرمني: تاريخ الشيخ أبي صالح ص ١٢١، ١٢٢، اكسفورد ١٨٩٤م، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٠، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٢.

(٢) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي ص ٢٤، ٢٥.

(٣) النوادر السلطانية: ص ٤٦.

(٤) الكامل: جـ ٩ ص ١٢٢.

هذه هى الأسباب التي ذكرها المؤرخون الأوائل، وبالنظر في هذه الأسباب نجد أن بعضها قد جانب الحقيقة، وبعضها قد لا يكون مقنعا تماما للقيام بمثل هذا العمل.

فبالنسبة لما ذكره العماد من أسباب نجد أن رغبة تورانشاه في زيادة إقطاعه لا يمكن أن تكون سببا في ارسال جيوش الأيوبيين لتحقيق هذا الغرض الشخصي، اضافة إلى أن تورانشاه قد نفذ المهمة وعاد دون أن يستفيد من اليمن أو يضمه إلى اقطاعه، أما تحريض عمارة فهو واحد من أسباب عديدة وليس سببا رئيسا أو مباشرا، صحيح أن عمارة قد قال قصائد كثيرة فى مدح تورانشاه وصلاح الدين وضمنها تحريضا واضحا للقيام بفتح اليمن،[1] وربما كان غرضه أن يضعف صلاح الدين ويبعد جيشه عنه تمهيدا للقيام بثورة ضده.

أما ما ذكره ابن شداد ففيه بعض الحقيقة على ما يرد تفصيله، لكن رأى ابن الأثير قد شط كثيرا في ابداء السبب وهو كما قلنا مبني على عاطفة هذا المؤرخ الذى يقف موقفا غير متوازن في حديثه عن نورالدين وصلاح الدين فيميل إلى آل زنكي كثيرا، ولو كان السبب هو ما ذكره لم يستشر صلاح الدين نورالدين في فتح اليمن كما ذكر المؤرخ نفسه،[2] إذن ما هي الأسباب الحقيقية التى دفعت صلاح الدين للمغامرة بجيشه في هذا الطور المبكر من ولايته على مصر؟

---

(١) وقد ضم ديوان عمارة كثيرا من القصائد في هذا الغرض ومنها:

ضاق الصعيد على جيادك بعدما ... ضمنت جيادك فتح كل صعيد
والغرب واليمن القصيدة أهله ... من خوفهم في قائم وحصيد

(الديوان ص ٢١٣، طبع مع كتاب النكتب العصرية) وأورد أبوشامة جملة من قصائده هذه ومنها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي عظيمة ... على كل راج فتحها ومؤمل
متى توقد النار التي أنت قادح ... بغمدان مشبوبا سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين ... وصنعاء من حصن حصين ومعقل

(الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٣).

(٢) الكامل: جـ ٩ ص ١٢٢.

الواقع أن هناك أسباب عديدة يمكن اجمالها فيما يأتي :

أولاً : رغبة صلاح الدين الأكيدة في القضاء على المذهب الشيعي ونشر المذهب السني وقد تحولت اليمن إلى مركز لهذا المذهب وأصبحت دولة بني عبدالمهدي خليفة للدولة الفاطمية، ويعمل حاكمها عبدالنبي على توسيع دولته ومد نفوذه فكان لزاما على صلاح الدين أن يقضي على هذه الدولة خاصة وأنه قد وصلته استغاثة من أهل تهامة وبعض الأشراف تطلب منه نجدتهم ضد هذا الحاكم الظالم، بل إن بعض المصادر تذكر أن الاستغاثة وجهت للخليفة العباسي نفسه الذى أمر صلاح الدين بفتح اليمن[1]، وأيا كان المستغاث به فقد كان هذا سببا مهما لهذا الفتح، ويستتبع نشر المذهب السني نشر النفوذ العباسي في تلك المناطق وهو ما كان صلاح الدين يعمل من أجله.

ثانيا: هناك سبب استراتيجي يتعلق بموقع اليمن وأهميته، فمما لا شك فيه أن صلاح الدين يعد نفسه للجهاد ضد الصليبيين، وهذا الجهاد يتطلب الحيطة والحذر من المخططات الصليبية، ولا يستبعد أن يجعل الصليبيون الحجاز هدفا من أهدافهم لذا حرص صلاح الدين على ضم اليمن القريب من الحجاز ليكون سندا له في حمايته من أي هجمة صليبية، وقد أثبتت الأحداث صدق تخوف صلاح الدين حيث هوجم الحجاز من قبل الصليبيين سنة ٥٧٨هـ،[2] وإن كان اليمن لم يساهم في صد هذه الهجمة لظروفه الداخلية.

كما أن مواجهة اليمن لدولة الحبشة النصرانية يساهم في قطع الطريق على أي اتصال بين الصليبيين في الشام وبين نصارى الحبشة.

ثالثا: أراد صلاح الدين باستيلائه على اليمن توحيد أكبر جزء من العالم الاسلامي، والاستفادة من موارد اليمن البشرية والاقتصادية لخدمة الجهاد ضد الصليبيين.

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ص ٣٧٦ المطبعة السلفية، يحى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني جـ ١ ص ٣٢٢، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٥٩، عبداللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ص ١٢٤، الطبعة الثانية.

هذه هي الأسباب الحقيقية لفتح اليمن، وقد نتج عن هذا الفتح تحقيق هذه الدوافع، فقضى على دولة بني عبدالمهدى، ودعي للعباسيين على منابر اليمن، واستفاد صلاح الدين من مواردها،[1] وكان ذلك عونا له على الجهاد فى سبيل الله.

الثورات الفاطمية وقضاء صلاح الدين عليها:

لم يستسلم أبناء البيت الفاطمي ولا أعوانهم بل ظلوا يتحينون الفرص للانقضاض على صلاح الدين والتخلص منه، ولا شك أن تسامح صلاح الدين وعدم بطشه بأبناء العاضد وأقاربه وأعوانه قد أتاح لهم التخطيط لعدد من الحركات ضده، إلا أن صلاح الدين مع تسامحه وعدم ميله للقتل وسفك الدماء كان سياسيا بارعا وإداريا متفتحا استطاع اكتشاف هذه الحركات وتتبعها والقضاء عليها، وكان أسلوبه في ذلك هو دس أعوانه بين المتآمرين ومعرفتهم واستكشاف خططهم، ثم الانقضاض عليهم والتخلص منهم، وقد نجح هذا الأسلوب كثيرا وتمكن صلاح الدين من القضاء على كل أعدائه وتخليص مصر من الفاطميين وأتباعهم.

كانت هذه الحركات تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية إلى مصر مرة أخرى والقضاء على صلاح الدين وأعوانه، وقام بهذه الحركات وتزعمها أبناء العاضد ووزراؤه. ففي سنة ٥٦٩هـ اجتمع قوم من الشيعة في القاهرة وبايعوا داود بن العاضد لكن صلاح الدين عرف خبرهم فقبض عليهم وقتلهم،[2] ولما أدرك أبناء العاضد استحالة الثورة في القاهرة نظرا لقوة صلاح الدين اتجهوا نحو الصعيد فثار في نفس السنة سليمان بن داود بن العاضد ولم يكن حظه بأحسن من والده فقد قبض عليه وأودع السجن حتى مات.[3]

أما الحركة الخطيرة الأخرى والتى كادت تودي بصلاح الدين وأعوانه فقد خطط لها في عام ٥٦٩هـ أيضا واتسمت هذه المؤامرة باشتراك عدة أطراف فيها اجتمعوا على

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٧٤.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٨٢.

(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٨٢.

هدف واحد هو القضاء على الحكم الجديد وارجاع الخلافة الفاطمية، كما أن أطراف هذه المؤامـرة قد اتصلوا بالقوى الصليبية في الشام وصقلية، وبالحشيشية في الشام للتنسيق معهم والتخطيط لهجوم خارجي على مصر تعقبه ثورة داخلية،[1] وقد أحكم هؤلاء مؤامرتهم ودبروا أمورهم فعينوا الخليفة والوزراء واتفقوا على أن يكون الخليفة من البيت الفـاطمي مما يدل على عزمهم اعادة تلك الدولة الشيعية، وقد اكتشف صلاح الدين هذه المؤامرة مبكرا عن طريق أحد عيونه المقيمين في مملكة بيت المقدس الصليبية، ذلك أن ملك بيت المقدس أخذ يرسل من قبله رسولا لصلاح الدين ظاهرا ولكنه في الحقيقة ينسق لعمل مع المتآمرين في القاهرة عن طريق هذا الرسول فلما علم صلاح الـدين بذلـك دس أحد رجاله فى صفوف المتآمرين وظل يمده بالمعلومات الدقيقة عن تحركاتهم لحظة بلحظة حتى اذا استوت المؤامرة ولم يبق إلا التنفيذ قبض عليهم صلاح الدين جميعا، وكان من أبرزهم:

١ ـ عمارة اليمني الشـاعر والوزير وقد ترأس هذه المؤامرة، ومهد لها بمشورته على تورانشاه بالتوجه لليمن.
٢ ـ داعي الدعاة عبدالجبار بن اسماعيل بن عبدالقوي.
٣ ـ القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن كامل.
٤ ـ القاضي الأعز سلامة العوريس متولي ديوان النظر.[2]

وعـرض صلاح الـدين قضيتهم على القضـاة فأفتوا بقتلهم فقتلوا في الثاني من رمضان سنة ٥٦٩هـ وصلبوا قبالة بيوتهم.

لقد كان ليقظة صلاح الدين وبثه العيون والمخبرين بين الصليبيين في بلادهم وبين الشيعـة في مصر أبلغ الأثر فى القضاء على هذه الحركة الخطيرة والتي كانت أعظم الحركات التي واجهته في حياته.

---

(١) الـذهبي: دول الإسـلام جـ ٢ ص ٨٤، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٧، ٢٨٨، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٤ وما بعدها، وانظر هامش ٣ ص ٧٧.

(٢) أرسل صلاح الدين خطابا لنور الدين يخبره بهذه المؤامرة وقد فصل فيه طريقة اكتشافهم والقضاء عليهم، انظر: أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٦٣، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٣، المقريزي: السلوك جـ ١ ق١ ص ٧٤، ٧٥.

على أن هناك نقطتين تتعلقان بهذه الحركة وتحتاجان للتمحيص :

النقطة الأولى :

ما ذكره بعض الباحثين[1] عن أهداف هذه الحركة وأنها أهداف شخصية لهؤلاء المتآمرين الذين حرمتهم السلطة الجديدة المزايا التي كانوا يتمتعون بها سابقا، ولم يكن هدفهم إعادة الخلافة الشيعية، والحقيقة أن الإنسان لا يستطيع انكار هدفهم الرئيسي وهو إعادة الخلافة الشيعية الفاطمية فكل المصادر أجمعت على أنهم أقاموا خليفة فاطميا، وبعضها ينص على أن هدفهم هو إعادة الدولة العلوية،[2] فكيف يمكن إنكار هذه الحقيقة، أما المصالح الشخصية فلا يمكن تجاهلها في هذه القضية لكنها ستتحقق ضمنا بتحقق الهدف المهم والرئيس وهو إعادة الخلافة الشيعية.

أما النقطة الثانية :

فهي محاولة بعض الباحثين[3] تبرئة هؤلاء المتآمرين من جريمة الاتصال بالصليبيين والتشكيك في ذلك، وهذه أيضا حقيقة ذكرتها المصادر المعاصرة للحدث والتى تلتها، ولا يمكن انكارها أو التشكيك فيها،[4] ومما يؤيد ذلك أن صلاح الدين لم يعلم بهذه المؤامرة إلا عن طريق عين له لدى الفرنج في القدس حيث علم بهذه الاتصالات وأخبر بها صلاح الدين،[5] كما أن النورمانديين هاجموا مصر سنة ٥٧٠هـ حسب

---

(١) علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية ص ١٩٣، يستشهد في ذلك بحال عمارة وببعض قصائده ومنها قوله مخاطبا آل أيوب :

فقد صارت ا لدنيا إليكم بأسرها ... فلا تشبعوا منها ونحن جياع

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٣، ابن أبي طي : السيرة الصلاحية في الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٦١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٧٥ وعبارته : «فاتفقوا بينهم أن يردوا الدولة الفاطمية»، ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ق١ ص٢٤٠.

(٣) وفاء محمل علي : قيام الدولة الأيوبية ص ٦٧، عبدالمنعم ماجد : الناصر صلاح الدين يوسف ص ٩٥.

(٤) انظر مثلا : ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٣، المقريزي : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٤، ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٢٨٧ وعبارته : «اتفقوا على استدعاء الفرنج من صقلية وسواحل الشام وبذلوا لهم الأموال على أن يقصدوا مصر».

(٥) أبوشامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٦٤.

الاتفاق الذي تم بينهم وبين أقطاب المؤامرة حيث لم يعلموا بانكشاف أمرها إلا بعد وصولهم للاسكندرية، مما[1] يؤكد أن المتآمرين قد اتفقوا مع الصليبيين ضد صلاح الدين.

حقيقة العلاقة بين نورالدين محمود وصلاح الدين الأيوبي:

رأينا فيما سبق كيف كان صلاح الدين حريصا على بناء الجبهة الإسلامية والقضاء على كل معوقات الجهاد من مذاهب منحرفة، وتشتت سياسي بين أقطار المسلمين، واستطاع في مدة وجيزة أن يضم إلى مصر أقاليم النوبة، واليمن، والحجاز، وأن يجعلها كلها تابعة للدولة الزنكية التي يعمل فى ظلالها ويدعو لحاكمها ويضرب اسمه على العملات.

ورغم كل هذا فقد كتب بعض المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين عن العلاقة بين الرجلين، وذكروا حصول جفوة وعداء بينهما ابتكر له ابن الأثير اسما لطيفا سماه «الوحشة»، ومن استقراء النصوص في المصادر القديمة نجد أن مُؤرخَين من المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث قد ذكرا فساد العلاقة بين نورالدين وصلاح الدين وهما ابن الأثير، وابن أبي طي، وقد نقل عنهما من جاء بعدهما من المؤرخين واشتركوا معهم حتى في استعمال الألفاظ فكانوا يسمونها وحشة كما سماها ابن الأثير.

وإذا رجعنا إلى ما كتبه هذان المؤرخان نجد أنهما يحصرنان أسباب العداء أو الوحشة ومظاهرها في أربع حوادث فسراها بما يستقيم مع هذه النظرة للعلاقة بين الرجلين:

وأولى هذه الحوادث:

ذكرها ابن الأثير وتتمثل في حصار الشَوْبَك[2] الذى حصل سنة ٥٦٧هـ، وملخصه

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٩ ص ١٢٩، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٧.

(٢) الشوبك: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك (ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٣٧٠)، استولى عليها الصليبيون وظلت فى أيديهم حتى استعادها المسلمون في عهد صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ.

أن صلاح الدين حاصر حصن الشوبك وكاد الحصن يسقط في يديه، لكنه سمع بقدوم نورالدين لنجدته ومساعدته وأشار عليه بعض رجاله بترك الشوبك والعودة إلى مصر خشية أن يزول حكم الصليبيين عن تلك المنطقة فينفتح الطريق بينه وبين نور الـدين فيأتي إليه فلا يبقى له بديار مصر مقـام، كما أن الاجتماع بنورالدين يجعله يتحكم في صلاح الدين، فاستجاب صلاح الدين لهذا الرأي وعاد إلى مصر محتجا بوجود بعض الحركات التي يدبرها الشيعة ضده، وذكر ابن الأثير خبر مجلس عقده صلاح الدين أظهر فيه والده نجم الدين وقوفه مع نورالدين ضد ولده صلاح الدين ظاهرا وتحلله من التبعية والخضوع لنورالدين باطنا.[1]

أمـا الحادثة الثانية: التي ذكرها ابن الأثير فهى حادثة الكَرَك[2] وهي شبيهة بالسابقة وقد حدثت سنة ٥٦٨هـ حيث ذهب صلاح الدين لحصار الكرك حسب اتفاق تم بينه وبين نور الدين، لكنه ترك الحصار حينما علم بقدوم نورالدين وأرسل يعتذر له ويذكر أن سبب عودته مرض والده نجم الدين، وحينما وصل مصر وجد والده ميتا، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله: كم كلمة قالت لقائلها دعني، إشارة إلى أن صلاح الدين قدْ كذب على نورالدين بهذه الحجة وأن وفاة نجم الدين كانت مفاجئة ولم تكن نتيجة مرضه بل نتيجة سقوطه من على فرسه.[3]

أما الحادثة الثالثة: فيذكرها ابن أبي طي وتختص بغضب نور الدين على صلاح الدين لأنه أرسل إليه هدية حقيرة استقلها نورالدين ورأى أن ذلك نتيجة استخفاف صلاح الدين به وعدم مبالاته بتبعيته له.[4] وكنتيجة لهذه الهدية فقد بدأ نورالدين

---

(١) الكامل: جـ ٩ ص ١١٢، ١١٣.

(٢) الكرك: بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى اسم لقلعة حصينة جدا فى طرف الشام من نواحي البلقاء بين أيلة وبحر القلزم والقدس على جبل عال (ياقوت: معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٥٣) وقد وصفها المستشرق فولفغانغ مولر فذكـر أنها مدينـة وقلعـة جنوبي الأردن من الطرف الجنوبي للبحر الميت تقع فوق ركن صخري استولي عليها الصليبيون واستعادها صلاح الدين بعد حصار دام ثمانية أشهر وذلك عام ٥٨٤هـ (القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٥٥ ترجمة: محمد الجلاد، دار الفكر ط ٢).

(٣) الكامل: جـ ٩ ص ١٢١.

(٤) السيرة الصلاحية، عن الروضتين ص ٥٢٥.

يتشكك فى أمانة صلاح الدين وحفظه للأموال كما يشير لذلك ابن أبى طي مما استدعى إرسال رجل من رجاله هو الموفق خالد القيسراني[1] وذلك لمحاسبة صلاح الدين ومعرفة صحة حسابات مصر وأين ذهبت أموالها؟[2]، وهذه هي الحادثة الرابعة.

هذه أربع حوادث جعلها المؤرخون سببا لغضب نورالدين على صلاح الدين كما يجعلونها دليلا على سوء العلاقة بين هذين القائدين.

ونحن قبل مناقشة هذه القضايا لابد من معرفة موقف هذين المؤرخين وهما ابن أبي طي وابن الأثير من نورالدين وصلاح الدين.

أما ابن الأثير فهو موصلي عاش في كنف الزنكيين وبخاصة نورالدين وخصهم بتأليف كتاب في تاريخهم وهو الباهر، ثم فجأة وجد أن هذه الدولة التي عاش في بلاطها تسقط على يد صلاح الدين فلا شك أن تفسيره لهذه الأحداث سيتفق مع نظرته لصلاح الدين كمستولي على السلطة من يد أولياء نعمته وكما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فإن عين ابن الأثير الساخطة على صلاح الدين قد نظرت إلى بعض أعماله على أنها مساوىء، وهي فى نظر غيره أعمال صائبة صالحة.[3]

أما ابن أبي طي فقد فسّر المؤرخ أبوشامة موقفه، ـ وهو الذي حفظ لنا نصوصا كثيرة من تاريخه ـ فذكر أنه متهم فيما ينسبه لنورالدين مما لا يليق به لأن ابن أبي طي شيعي ونور الدين قد أذل الشيعة في حلب وقوى أهل السنة وكان والد ابن أبي طي

(١) هو موفق الدين خالد بن محمد بن صغير القيسراني نسبة إلى بلدة قيسارية بلدة على ساحل البحر بالشام، كان بمثابة الوزير لنورالدين (ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص ٢١٨، ٢١٩، وهامش رقم (١) من الصفحة الأخيرة).

(٢) ابن أبي طي: نفس المصدر ص ٥٢٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣٢.

(٣) عن ابن الأثير: انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٨ وما بعدها، وابن ايبك الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٢٢ ص ١٣٦، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٣٧.

من رؤوس الشيعة فنفاه نورالدين من حلب، فلهذا هو في كتابه يحمل كثيرا على نور الدين فلا يُقبل كل ما ينسبه له مما لا يليق.[1] ومع كل هذا فان الحوادث التاريخية ـ وبعضها قد ذكرها هذان المؤرخان ـ تفيد بها لا يدع مجالا للشك بحسن العلاقة بين هذين القائدين ولذا فاننا سنناقش كل قضية من هذه القضايا ثم نذكر ما يثبت حسن العلاقة بينهما واحترام كل واحد للآخر.

أما بالنسبة للحادثة الأولى وهي حصار الشوبك سنة ٥٦٧هـ فالحقيقة أن سبب رجوع صلاح الدين هو بسبب أخبار وصلته عن تحركات شيعية في مصر، وهو ما أوضحه لنورالدين في حينه فصلاح الدين صادق في عذره، وقد حدثت تحركات وثورات قام بها رجال الدولة الفاطمية وبعض أبناء الخليفة العاضد ـ وقد سبق ذكرها ـ بعد ذلك التاريخ، والمعروف عن صلاح الدين أنه كان يسير حسب سياسة خاصة في التعامل مع هذه الثورات حيث أنه لا يقضي عليها مبكرا وانما يتركها حتى تستوي ويدس بين رجالها أحد أعوانه حتى يطلع على كل خباياهم وأسرارهم وأسمائهم ثم اذا حانت ساعة الثورة قبض عليهم متلبسين بالجريمة، وقد طبق هذا الأسلوب مع المتآمرين في حركة عمارة، فلا يستبعد والحالة هذه أن يكون صلاح الدين قد علم بهذه الحركات ولكنه لم يقبض عليها بعد عودته من الشوبك مباشرة وإنما أمهلهم حتى عرف كل أسرارهم، ولكن ابن الأثير المقيم خارج مصر لم يدرك هذه السياسة التي ينتهجها صلاح الدين.

أما احتجاجه بالمجلس الأيوبي الذى عقده صلاح الدين بعد انصرافه وملخصه أن صلاح الدين استشار أهله وقادته في العمل إن قصدهم نور الدين، فتكلم تقي الدين عمر ابن أخيه واحتد على نور الدين وأعلن استعداده لحربه مما جعل نجم الدين يغضب عليه ويتأسف عما أبداه تجاه نورالدين ثم يعلن ولاء الأسرة الأيوبية كلها لنورالدين أمام الجند، لكنه انفرد بابنه صلاح الدين بعد ذلك وأسر له باتفاقه

---

(١) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤١، وعن ابن أبي طي يراجع ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان جـ ٦ ص ٢٦٤، ط ٢ ـ ١٩٧١م.

مع تقي الذين عمر في الرأي ولكن المصلحة تقتضي عدم اعلان هذا الموقف وختم حديثه السري لابنه بقوله: «والله لو أراد نورالدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أُقتل» فإننا نوجه سؤالاً واحدا يَرُدّ على هذا الاتهام وهو: كيف علم ابن الأثير بالسر الذى دار بين نجم الدين وابنه صلاح الدين ولم يكن معهم أحد آخر حيث ينص على ذلك بقوله: «فلما خلى به أيوب»؟[1]

وعلى هذا يتضح عدم توثق ابن الأثير فيما ذكره عن هذا المجلس، وبناءً عليه فإن هذه الحادثة لا تنبيء عن فساد في العلاقة بين الجانبين لأن صلاح الدين اعتذر وقبل نورالدين العذر ورضى به، وإلا لكان سار إلى مصر وأخذها من بني أيوب أو أصدر أمرا بعزلهم.

والحادثة الثانية وهي حادثة الكرك أيضا كان صلاح الدين صادقا في عذره فقد وصلت إليه أنباء مرض والده وهو محاصر للكرك فقفل راجعا خشية موته وخروج أمر مصر من يديه، صحيح أن سبب موته هو سقوطه من الفرس كما ذكر ابن الأثير لكنه لم يمت مباشرة بل مرض أياما كانت كافية لوصول الخبر لصلاح الدين فلما عاد إلى مصر كان والده قد مات، وابن الأثير نفسه يذكر أنه حينما سقط حمل وقيذا وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ،[2] وكان مدة مرضه عشرة أيام حيث كان سقوطه في الثامن عشر من ذي الحجة،[3] وهي مدة تكفي لوصول الخبر إلى صلاح الدين عند الكرك، وعلى هذا فقد كان صادقا ولم تكن كلمة قالها وكتبت كما ذكر ابن الأثير، وقد اعتذر أيضا لنور الدين وقبل نورالدين عذره وذكر ابن الأثير أنه قال: «حِفْظ مصر أهم عندنا من غيرها»[4] مما يدل على رضاه عن صلاح الدين واقتناعه بعذره وأما أمر الهدية التي ذكرها ابن أبى طي وزعمه أنها لم تقع من نور الدين بموقع الرضا فالحقيقة هي أن ابن طي قد اتهم نورالدين بذلك اتهاما كاذبا فالعماد

---

(١) الكامل: جـ ٩ ص ١١٣.

(٢) الكامل: جـ ٩ ص ١٢١.

(٣) العماد الأصفهاني: عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٣، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٣.

(٤) الكامل: جـ ٩ ص ١٢١.

الاصفهاني الذى كان ملازما لنورالدين قد رأى هذه الهدية وكانت من الذخائر النفيسة التي انتخبها صلاح الدين من خزائن القصر، وعدها العماد من محاسن العصر ويذكر أنها قوبلت بالإحسان والتحسين وكان موقفه من صلاح الدين أن شكر همته، وذكر بالكرم شيمته، بل إنه يذكر أن جزءً من هذه الهدية قد أهداه نورالدين لابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل الذى هو بدوره سيره إلى بغداد هدية منه للخليفة العباسي، كما أن نورالدين سير جزءً منها أيضا للخليفة العباسي في بغداد،[1] فإذا كان الأمر كذلك فكيف يغضب نورالدين على صلاح الدين لقلة الهدية ويظن أن صلاح الدين قد احتقره بهذه الهدية المتواضعة ثم هو يهدي جزءً بسيطا للخليفة العباسي في بغداد وهو أعلى منه مقاما وأعظم قدرا، لا شك أن تلك الهدية كانت عظيمة جليلة فرح بها نورالدين ورضى عن صلاح الدين تمام الرضا ولم تكن نتائجها إلا دعما للعلاقة بين الرجلين.

وأما ما ذكر من محاسبة نورالدين لصلاح الدين فهذه حقيقة لا يستطيع الباحث انكارها؛ ولكن المؤرخين المعاصرين للحدث قد أوضحوها بصورة جلية لا يستشف منها فساد العلاقة بين الرجلين، وقد كانت محاسبة الولاة سنة لدى الحكام المسلمين منذ صدر الإسلام، وما ذكرته المصادر عن هذا الأمر أن نورالدين كان في حاجة ماسة للأموال كي يتقوى بها في جهاده الصليبيين وكان يأمل أن تصله من صلاح الدين مباشرة بعد سقوط الدولة الفاطمية، لكن الذى حدث أن صلاح الدين كان هو الآخر في حاجة لهذه الأموال كي يتقرب من الناس ويستميلهم إليه وكان كريما جوادا يعطي عطاءً جزلا، كما أنه في حاجة لهذه الأموال لتدبير شئون هذه الولاية الجديدة وإعادة ترتيب أوضاعها من جديد ودفع رواتب جنده وأعوانه ولذا تأخر فى ارسالها لنور الدين مما دفعه إلى إرسال شخص اسمه الموفق خالد بن القيسراني ليكشف حسابات مصر، وقد وصل هذا المحاسب إلى القاهرة وقابله صلاح الدين وقدم إليه كل ما طلبه وتحقق من أمانة صلاح الدين وإنفاقه للأموال فى وجوهها، وعاد للشام محملا بالهدايا الجزيلة

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٦٥.

لنور الدين ولكن نور الدين لم يستلمها لأنه مات رحمه الله قبل وصولها[1] في سنة ٥٦٩هـ.

هذه حقيقة تلك الأحداث التي ذكرها المؤرخون وبهذا يتضح أنها لم تكن سببا ولا مظهرا لفساد العلاقة أو لوجود وحشة بين القائدين المسلمين، كما أن هناك من الأمور والأحداث ما يثبت حسن العلاقة واحترام كل واحد منهما للآخر: ولعل من أبرز ذلك تلك الصفات التي يسبغها نورالدين على صلاح الدين وقد أورد أبوشامة كتابا بخط نورالدين للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول في آخره «بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير»[3] وبالمقابل فقد كان صلاح الدين يجلّ نورالدين ولا يُبرم أمرا إلا بإذنه كما حصل حينما عزم على فتح اليمن حيث أرسل يستأذنه فى ذلك،[4] وحينما حاصر الصليبيون دمياط أغتم نورالدين لذلك غما شديدا ورفض أن يبتسم وقال: «إنى لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج»[5] وهكذا نجد هذه الأحداث تنفي وجود أي فتور فى العلاقة بين القائدين المسلمين.

وكلمة أخيرة فى هذا الموضوع وهي أن أهداف نورالدين وصلاح الدين أهداف سامية وكلها ترمي لتحرير البلاد الإسلامية من رجس الصليبيين، ولم تكن لهما أهداف شخصية بحيث تؤدي إلى انحراف العلاقة بينهما لكنهما قد لا يتفقان في الأسلوب الذى يُسهل الوصول إلى تلك الأهداف، ومن غير المعقول أن يقوم صلاح الدين الذى

---

(١) الحسن البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٩، أبوشامه: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٢٥، ص ٥٥٨.

(٢) سبق التعريف به ولمزيد من المعلومات راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٥٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٩.

(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٢.

(٥) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٩.

عرف بالتدين والخلق القويم والذي لم يغيره الحكم أو السلطان بالغدر بسيده نورالدين الذي ظل يحترمه طيلة حياته ثم حافظ على ولائه لابنه الصغير اسماعيل ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

العلاقة بين صلاح الدين وحكام الدولة الزنكية بعد وفاة نورالدين:

أ ـ حالة الدولة بعد وفاة نورالدين:

خلف السلطان نورالدين في حكم الدولة ابنه الصغير اسماعيل الذى لم يبلغ الحلم حيث حلف له الأمراء في الشام وضربت السكة باسمه وخطب له،[1] وقد كان موقف صلاح الدين رحمه الله واضحاً حيث وصلت كتبه إلى دمشق يعزي الصالح اسماعيل في والده ويعلن طاعته وولاءه له، وقد ضرب السكة باسمه وخطب له وأرسل دنانير مصرية دليلا على ذلك.[2]

والحقيقة أن وفاة السلطان نورالدين محمود قد أثرت كثيرا على وضع الجبهة الإسلامية والدولة الزنكية من جميع النواحي:

فمن الناحية السياسية: تنازع الأمراء فى الشام الأمر وكلهم يريد أن يهيمن على هذا الطفل الصغير، وقد كان هناك فريقين قويين واحد في دمشق وآخر فى حلب وكل واحد يريد الصالح اسماعيل عنده، ففى دمشق كان آل المقدم وزعيمهم شمس الدين محمد بن المقدم الذى تولى تربيته وتدبير شؤون دولته وكان عندهم في دمشق، وفى حلب كان آل الداية وزعيمهم شمس الدين علي بن الداية وقد أرسلوا لآل المقدم يطلبون منهم إرسال الصالح إسماعيل ليكون قريبا من البلاد الجزرية التي أخذها ابن عمه سيف الدين غازى فرفض آل المقدم ذلك خشية أن يضعف أمره بفقده للملك الصالح،[3] ثم ظهر على مسرح الأحداث سعد الدين كمشتكين وهو من رجال

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٦٢، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ١.

(٢) العماد الأصفهاني: عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٨٨، ابن الأثير: الباهر ص ١٦٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣٦، والباهر ص ١٧٥.

نورالـدين وتحـالف مع آل الداية مؤقتاً وسار إلى دمشق واستطاع الخروج بالصالح اسـاعيل وأحضره إلى حلب في ٢٣ ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ، ثم غدر بآل الداية وقبض عليهم وانفرد بالهيمنة على الصالح اسماعيل.[١]

علم صلاح الدين بهذه التطورات، وكان فى أول الأمر يظن أن الأمور ستستقيم لابن نورالدين، ولكن شيئا من ذلك لم يتم فلم يعد من المقبول أن يظل وهو من أقرب الناس إلى نورالدين وأكبرهم ولاية وجندا بعيدا عن هذه الأحداث، والحقيقة أن أمراء الشام كانوا يدركون ذلك ويعرفون أهمية صلاح الدين وتأثيره الكبير في الأحداث وقد أشار أحدهم على ابن المقدم بالاتصال به ومشاورته في الأمر لكنه لم يفعل خوفا من صلاح الدين أن يستأثر بالأمر ويعزلهم.[٢]

ومن الناحية الدينية والاجتماعية فقد ظهرت المنكرات والفواحش وجاهر الناس بهما وكان نورالدين رحمه الله قد أبطلها، بل إن سيف الدين غازي لما تحقق من موت عمه «نادى مناديه بالبلد بالمسامحة باللعب واللهو والشراب والمسكر والطرب ومع المنادي دف وقدح ومزمار الشيطان».[٣]

ونتيجة لهذه الأوضاع المتردية فقد طمع الأعداء في هذه الدولة وأخذ الصليبيون يستعـدون لمهاجمة المسلمين وكان هدفهم الأول الاستيلاء على دمشق، فخرج ابن المقـدم ولقيهم عنـد بانياس[٤] وهـددهم بصـلاح الدين وعقد معهم معاهدة يلتزم بموجبها بدفع مقرر لهم،[٥] وقد غضب صلاح الدين لما علم بذلك، إذ كيف يرضى المسلمون بالخضوع للصليبيين ودفع الأموال لهم وأرسل رسالة لأمراء الشام يؤنبهم على هذا العمل.[٦]

---

(١) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي ص ٧٤، أبوالفداء: المختصر جـ ٣ ص ٥٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٥، وانظر العماد: فى الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٢.

(٤) بانياس: مدينـة قريبـة من دمشق هي ثغـر بلاد المسلمـين، كانت بيد الفرنج فاسترجعها نورالدين رحمه الله (الحميري: الروض المعطارص ٧٤ تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان).

(٥) ابن أبي طي: عن الروضتين جـ ١ ق ٥ ص ٥٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٨، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٨.

ومن ناحية أخرى فإن سيف الدين غازى صاحب الموصل ابن أخي نورالدين طمع في أملاك ابن عمه اسماعيل واستولى على مدن الجزيرة التى كانت بيد نورالدين ومنها نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وسروج ولم يبق فى البلاد الجزرية خارجا عن حكمه سوى قلعة جعبر التي استعصت عليه،[1] ولم يستطع الأمراء القائمون بالأمر في الشام من الحد من أطماعه، وتركوه يضم هذه المناطق منشغلين بخلافاتهم ومغلبين لمصالحهم الشخصية.

وهكذا بدا أن الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي وحماها ووسعها وثبت أركانها من بعده ابنه نورالدين محمود قد آذنت بالسقوط وتداعت وطمع فيها الأعداء من الغرب والشرق، والأخطر من ذلك كله أن القضية التي أفنى نورالدين عمره من أجلها قد نسيت ولم يعد يهتم بها أحد ألا وهي الجهاد ضد الصليبيين، فكان لابد من ظهور قائد قوي مسلم لتبني هذه القضية والعودة بها إلى ساحتها من جديد، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فهل يسكت صلاح الدين وهو الأمير الذى قربه نورالدين وأحبه وأثر فيه كثيرا وبخاصة بحب الجهاد، أيترك صرح دولة مولاه يتهاوى ويترك بلاد المسلمين تسقط في يد الصليبيين فتضيع سنوات عديدة من الجهد والدم والمال بذلها آل زنكي ورجالهم؟ إن الأمر يتطلب تدخله عاجلا، وعلى العكس من تفسيرات بعض المؤرخين لقد كان تدخله واجبا يمليه عليه دينه وانتماؤه وهو لصالح الإسلام والمسلمين قبل أن يكون مصلحة شخصية له فقط. إن صلاح الدين ان لم يتدخل واكتفى بولاية مصر وهي كافية بلا شك لوقع عليه اللوم الكثير من المؤرخين بل من المسلمين، لقد كان في مقدوره أن ينزوي في مصر وأن يبتعد عن هذه المشاكل ويعيش في ولايته آمنا مطمئناً لكنه آثر المصلحة العامة للمسلمين، وشق عليه أن يخضع المسلمون للصليبيين فيدفعون لهم الأموال والبلاد، ولو قرأنا الرسائل التي بعث بها صلاح الدين للصالح اسماعيل لوضح لنا هذا الشعور الذى انتابه في أول الأمر وكان يخشاه أشد الخشية، يقول في رسالة له موجهة للصالح اسماعيل: «فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي

(١) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي ص ٧٥، ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٢٧.

تعبت الأيام فيها، إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يدا واحدة، وأعضادا متساعدة، وقلوبا يجمعها ود، وسيوفا يضمدها غمد، ولا تختلفوا فتتكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنامل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الإيمان» ثم يبدي استعداده للدفاع والمناصرة.[1] وهكذا نجد صلاح الدين قد خشي مما وقع وحذر منه وشدد في التحذير ولم يكن كما يصوره البعض بأنه قد استغل تلك الظروف وسر بها ليصل إلى مراده.

والواقع أن بلاد الشام لم تخل من الرجال الحكماء العقلاء الذين أحسوا بالخطر الداهم وأدركوا أن القائد المناسب لهذا الظرف الحرج هو صلاح الدين وليس آل الداية أو آل المقدم أو سعد الدين كمشتكين ولذا فقد أرسلوا إليه يطلبون نجدته وسرعة مجيئه لإنقاذ بلاد المسلمين،[2] وسيروا إليه رسلا وصلته في مستهل سنة ٥٧٠هـ يستحثونه ويطلبـون منه الإسراع في المسير،[3] لم يكن صلاح الدين في حاجة للتفكير طويلا لإجابة هذا الطلب فقد كان لديه قناعة بأنه الرجل المناسب لهذه الظروف الحرجة وإن كانت هذه الظروف لم تعطه الفرصة إلا في هذا الوقت يقول في رسالة إلى أمراء الشام: «لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري» ثم يتوعدهم لتفردهم بابن مولاه إذا هو أتى إلى الشام.[4]

ب ـ مسير صلاح الدين للشام:

لم يستطع صلاح الدين الشخوص للشام سريعا نتيجة لأمرين اعترضاه وهما:

أولاً : هجوم أسطول صقلية على الإسكندرية في شهر صفر عام ٥٧٠هـ وذلك تنفيذا للمؤامرة التي تمت مع عمارة اليمني وشيعته حيث لم يعلم ملك صقلية بانفضاح

---

(١) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٨٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٣.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨١.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٧.

أمرهم وقد هاجم الإسكندرية بأسطول كبير يتكون من ستمائة قطعة حربية وثلاثين ألف مقاتل إلا أن سرعة حركة صلاح الدين وإرساله المدد لهذا الميناء قد أدخل الرعب في قلوبهم وبخاصة بعدما علموا بفشل المؤامرة فعادوا خائبين بعد ثلاثة أيام فقط.[1]

أما الأمر الثاني: فهو حركة كنز الدولة متوج في جنوب مصر حيث جمع الجموع وهاجم بلاد الصعيد وأصبح خطرا على الدولة فأرسل صلاح الدين له جيشا بقيادة أخيه العادل استطاع اخماد ثورته وقتل الكثير من رجاله وذلك في شهر صفر عام ٥٧٠هـ.[2]

وبعد أن اطمأن صلاح الدين لأمور مصر سار إلى الشام في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ واستناب بمصر أخاه العادل فوصل دمشق في شهر ربيع الآخر من العام نفسه فخرج العسكر للقائه وأعلنوا طاعته وسكن فى بيت والده، ثم استولى على القلعة فدانت له كل البلد.[3]

ويصف لنا ابن كثير حالة الشام حين دخلها وهدفه من ذلك فيقول: «أخيف سكانها، وتضعضعت أركانها، واختلف حكامها، وفسد نقضها وابرامها، وقصده جمع شملها، والإحسان إلى أهلها، وأمن سهلها وجبلها، ونصرة الإسلام، ودفع الطغام، واظهار القرآن، واخفاء سائر الأديان، وتكسير الصلبان في رضى الرحمن وإرغام الشيطان».[4]

ويوضح ابن أبي طي ما عمله بعد وصوله إلى دمشق بقوله: «نشر علم العدل والإحسان وعضّ آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٨، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٧. ويذكر أنها في ذي الحجة عام ٥٦٩هـ، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٨.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨٠، أبو الفداء: المختصر جـ ٣ ص ٥٦، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣١، البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨١.

(٤) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٨.

نورالدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات» .[١]

ولما سمع القائمون على إسماعيل بمجيء صلاح الدين أرسلوا له رسولا ليفاوضه ، ولكن الرسول أغلظ في القول وتطاول على صلاح الدين ، فتحمل ذلك وقابله بالعفو والصفح ،[٢] وأدرك صلاح الدين أن الأمر يحتاج إلى حزم وعزم فخرج بعسكره ونزل على حمص في الحادي عشر من جمادى الأولى واستولى عليها ، ثم غادرها إلى حماة فأخذها في جمادى الآخرة ، ثم اتجه إلى حلب فحاصرها وفيها الصالح والأمراء القائمون بأمره وعلى رأسهم سعدالدين كمشتكين ،[٣] ولقد أراد هذا الشخص بث الحماس في نفوس عامة حلب للوقوف معه ضد صلاح الدين لأنه يدرك مدى ميل الناس إليه ، فجمعهم في الميدان ثم أخرج اليهم الصالح اسماعيل فخطب فيهم وبكى مما أثارهم وحمسهم فوعدوه بالنصر والمساعدة .[٤]

والحقيقة أن هؤلاء الناس الذين أعلنوا وقوفهم معه ضد صلاح الدين لم يكونوا سوى الشيعة الذين استغلوا هذا الظرف الصعب داخل حلب فأرادوا استعادة نفوذهم وإظهار مذهبهم وإحياء ما أماته نورالدين من شرائعهم ولذا فقد اشترطوا أن يعاد لهم شرقي الجامع ليصلوا فيه ، وأن يجهر بحي على خير العمل ، وأن تردد أسماء الأئمة الإثني عشرة في الأسواق وأمام الجنائز ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحة عند أحد رجالهم ، وغير ذلك مما أبطله نورالدين رحمه الله ،[٥] وقد اجيبوا لذلك حيث أذن المؤذنون فى الجامع وغيره بحي على خير العمل ، وصلوا فى الشرقية وذكروا أسماء الأئمة فى الأسواق وأمام الجنائز ، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات وفعلوا كل ما اشترطوا لأنفسهم على الصالح اسماعيل .[٦]

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) البنداري : سنا البرق الشامي ص ٨٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٣١ ، البنداري : سنا البرق الشامي ص ٨٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) .ابن أبي طي : السيرة الصلاحية عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٣ .

(٥) أبوشامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٩ .

(٦) ابن أبي طي : نفس المصدر ص ٦١١ وذكر أن والده هو الذى أم الشيعة فى الجامع .

وهكـذا يتضـح مدى التحـالف الذى تـم بين الروافض وبين القائمين على أمر الصالح اسماعيل وأن المعارضين لصلاح الدين كان أغلبهم من الشيعة الذين يعدونه عدوهم اللدود الذى أسقط دولتهم وأضعف مذهبهم .

ولم يكتف سعد الدين بهذا بل إنه أرسل الى زعيم الحشيشية سنان يطلب منه القيام بمؤامـرة لاغتيال صلاح الدين وهو محاصر لحلب، ونفذ سنان هذه المؤامرة فأرسل مجموعة من رجاله لمخيم صلاح الدين وكادوا يفتكون به لولا يقظة رجاله الذين تعرفوا عليهم وقتلوهم .[1]

وبلغ الغدر ذروته لدى أهل حلب حينما اتصلوا بملك طرابلس الصليبي ريموند الصنجيلي يطلبـون منـه المسـاعدة ومهاجمة حمص لعل صلاح الدين يفك الحصار عنهم، وقد نفذ ريموند هذه الخطة فهاجم حمص مما اضطر صلاح الدين إلى ترك حلب مؤقتاً والتوجه لانقاذ حمص فلما علم الصليبيون بقدومه تركوها وربما كان ذلك بسبب سَرِيّة أرسلها صلاح الدين إلى طرابلس، وقد أكمل صلاح الدين الاستيلاء على حمص وذلك بأخذ قلعتها فى شعبان سنة ٥٧٠هـ ثم سار إلى بعلبك فتسلمها فى رمضان وبذلك خضع لصلاح الدين معظم الشام .[2]

وإزاء هذه الانتصارات لصلاح الدين فقد اضطر إسماعيل إلى الاستنجاد بابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل فأجابه وبدأ الاستعداد لإرسال العساكر إلى الشام[3] وبذا اتسع نطاق النزاع ليشمل أبناء قطب الدين ممدود بن زنكي وأصبح الزنكيون جميعا في الشام والجزيرة ضد صلاح الدين، وقد ظهرت براءة صلاح الدين في نزاعه مع آل زنكي حينما ظل وفيا لهم يدعو لحاكمهم اسماعيل ويضرب اسمه على النقود ويجعل نصرته هي الهدف من مجيئه للشام، ثم تظهر مرة أخرى حينما أرسل إلى الخليفـة العبـاسي في بغداد رسالة مع الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء البعلبكي يعـدد فيهـا مآثره خاصة ومآثر الأيوبيين عامة، ويذكر دورهم فى اسقاط

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨٣، ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٢ .

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣٢ ، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٩ .

(٣) أبوالفداء: المختصر جـ ٣ ص ٥٧ .

الشيعة والدعوة للعباسيين في مصر وفتحهم النوبة واليمن وبعض بلاد المغرب، ثم يذكـر دورهم في الجهاد ضد الصليبيين، وحفظهم للحرمين الشريفين، ويشير إلى وصول الوفود من سائر الأمصار يطلبون منه التقليد وكيف أعطاهم الألوية والمناشير ليدعـوا للخليفة المستضيء، ويوضح علاقته بالقوى الصليبية ومنها: القسطنطينية وصقلية وجنوة والبندقية وهي علاقات حربية وأحيانا سلمية، ويصف له حالة الدولة الزنكية بعد وفاة نورالدين حيث الفرقة والخلاف وأخطار الأعداء من كل جانب، وكيف أن هذه الظروف لا تساعد على تحقيق الهدف العظيم للمسلمين وهو تحرير بلادهم وبخاصة القدس من رجس الصليبيين، ويبين للخليفة أن هدفه هو استعادة القدس وأن ذلك لا يتأتى بسهولة إلا إذا اتحدت مصر مع الشام وانطلقت الجيوش من الشام القريبة لا من مصر البعيدة، وكذلك إذا قضى على أسباب الفرقة والخلاف بين أمراء الشام وأصبح هو الحافظ للملك اسماعيل لأنه أولى من أولئك الذين استغلوه لأهدافهم الشخصية ويختم رسالته بطلب تقليد من الخليفة حيث يقول: «والمراد الآن هو كل ما يقـوي الـدولـة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق بالإسم العباسي كل ما تطيقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا، وللدعوة تجديدا، مع ما ينعم به من السمات التى فيها الملك، وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرن يقـوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا»[1] ولم يظل صلاح الـدين مكتوف الأيدي حتى يأتيه التقليد بل أخذ يستعد لملاقاة الحلف الزنكي الذى اجتمع في حلب، وقد راسلهم صلاح الدين في طلب الصلح وعرض عليهم التنازل عن حمص وحماة مقابل اقرارهم له بدمشق نائبا عن السلطان اسماعيل وأن يعود إلى مصر، ولكنهم طمعوا فيه واشتطوا في شروطهم فكان لابد من الحرب،[2] وسار بجيشه وعسكر على قرون حماة مقابل الجيش الزنكي الذى

(١) أبوشامة: الروضتين من ص ٦١٦ إلى ص ٦٢٣، وذكره المقريزي مختصرا في السلوك جـ ١ ق ١ ص ٨٢.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨٦، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣٣.

يقوده عزالدين مسعود، واستطاع صلاح الدين أن يداريهم حتى وصلت له النجدة من مصر، وفي التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٠هـ التقى الجمعان في معركة انتصر فيها صلاح الدين على آل زنكي، ورغم مقدرته على القضاء عليهم إلا أنه أمر جنده بأن لا يوغلوا في طلبهم ولا يقتلوا منهزما ولا يجهزوا على جريح. [١]

لقد كان من آثار هذه المعركة أن تعزز موقف صلاح الدين في الشام وأصبح هو الرجل المؤهل لقيادة الجبهة الإسلامية، والبديل لنورالدين محمود في نظر المسلمين والخلافة الإسلامية، ولذا سارع الصالح اسماعيل يطلب منه المهادنة واتفق الطرفان على عقد صلح يتضمن مايلي:

١ ـ أن يقر الصالح اسماعيل لصلاح الدين بما تحت يده من بلاد الشام (أي دمشق وحمص وبعلبك وحماة وما بينها).
٢ ـ أن يتعهد صلاح الدين بحماية الصالح اسماعيل بجيوشه اذا داهمه عدوه.
٣ ـ أن يظل صلاح الدين يدعو له ويضرب السكة باسمه. [٢]

وهكذا اعترف الزنكيون بصلاح الدين حاكما على معظم الشام اضافة إلى مصر وبينما كان عائدا إلى دمشق بعد هذا الصلح وفي مدينة حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله تحمل التشريفات السنية، والخلع العباسية والأعلام السود، والتوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام، كما أفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأعوانه وكان يوما مشهودا. [٣]

لقد كان من آثار ذلك أن أصبح صلاح الدين الأيوبي حاكما شرعيا لمصر والشام معترفا به من قبل الخلافة العباسية ومن قبل آل زنكي وبذا قطع هذا القائد المسلم شوطا بعيدا فى سبيل الهدف العظيم الذى شرع فيه نورالدين محمود بن زنكي وهو

---

(١) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية، عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٣٨، ٦٣٩، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣٣.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨٧، ٨٨، وقد كتب العماد بنفسه نسخة اليمين.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٨٨، ٨٩، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٩١، المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٨٣.

توحيد الجبهـة الإسـلامية استعـداداً لتخليص البلاد الإسلامية وتحريرها وبخاصة القدس من يد الصليبيين، والحقيقة أن التجارب أثبتت أنه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بهذا الاتحـاد، فكـان على صلاح الـدين أن يحقق هذا الهـدف وأن ينقذ العالم الإسلامي من المصير السيء الذى آل إليه بعد وفاة نورالدين ولو كان ذلك على حساب زوال الدولة الزنكية، إن المهم هو مصلحة العالم الإسلامى وليس مصلحة شخص أو أسرة أو حاكم، ولذا فلا اعتبار لأي نقد يوجه إلى صلاح الدين في تلك المرحلة بسبب مناوئته للزنكيين مادام سيضطلع بالدور الخطير وهو قيادة العالم الإسلامي ضد الصليبيين ولقـد أثبتت الأيام القادمة صدق هذا القائد وتجرده فى كل أعماله حيث استطاع تحقيق هذه الأهداف، لقد نتج عن هذا الوضع الجديد لصلاح الدين أن بدأ الفرنج يتعاملون معه هو وليس مع الزنكيين ففي مستهل سنة **٥٧١**هـ وصلت إليه رسلهم تتطلب المهادنة والسلام، وحيث أن الأمور لم تستقر تماما له بعد في الشام فقد أجابهم لهذا الطلب واشترط عليهم شروطا قبلوها، ومع أن العماد لم يوضح لنا ما هية هذه الشروط إلا أنه يشير إلى أنها كانت فى صالح المسلمين،[١] وقد أصاب الشام في تلك السنـة جدب فأذن صلاح الـدين لجنـده بالعـودة إلى مصر صحبـة القـاضى الفاضل، وقد علق ابن كثير على هذا التصرف من صلاح الدين بقوله: «وكانت إقامة السلطان بالشام وإرسال الجيش صحبة القاضى الفاضل غاية الجزم والتدبير، ليحفظ ما استجد من الممالك خوفا عليه مما هنالك»[٢].

جـ - نقض الزنكيين للصلح ومعركة تل السلطان:

لم يستمر الصلح بين الجانبيين طويلا وذلك بسبب نقض الزنكيين له، ذلك أن سيف الدين غازي لما علم بأمر الصلح ساءه ذلك وأرسل إلى أهل حلب يلومهم ويطالبهم بنقضه ويعدهم بالمساعدة وكتب لهم العهد بذلك، وقد علم صلاح الدين بذلك مبكرا حيث انفضح أمرهم حينما جاءه رسولهم في دمشق يفاوضه مخادعة ولكنه سلمه العهد الذى بينهم ضده بدل تسليمه الكتاب المرسل إليه، وأظهر الحلم والثبات

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٩٠.

(٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٩٢.

وأعاد الرسول وبدأ الاستعداد[١] للمواجهة، أما سيف الدين غازي فقد سار بجنده من الموصل ووصل حلب فاجتمع بكمشتكين والصالح اسماعيل واتفقوا على حرب صلاح الدين،[٢]، وقد أقدموا على خطوة سيئة وذلك باطلاقهم سراح بعض القادة الصليبيين الذين كانوا في أسر المسلمين ليتقووا بهم على صلاح الدين ومنهم البرنس أرناط صاحب الكرك وجوسلين صاحب حارم،[٣] ولما كان أغلب جند الأيوبيين في مصر فقد أرسل صلاح الدين في طلبهم بسرعة وأخذ يماطل الزنكيين حتى يصله المدد.[٤] وفي تل السلطان عسكر الطرفان استعداداً للقتال، وفي يوم الخميس العاشر من شوال سنة ٥٧١هـ التقى الجمعان في معركة اسفرت عن هزيمة الحلف الزنكي وانتصار صلاح الدين، وفر من نجا منهم عائدين إلى حلب وأمسك صلاح الدين عن ملاحقتهم، وقد انكشفت بعد هذه المعركة الأوضاع السيئة التي يعيشها الزنكيون وفساد حياتهم وأخلاقهم فقد وجد مع سيف الدين غازي بيتا للشراب ومجموعة من الطيور كالقماري والبلابل والببغاء بل إن معسكره كان كالحانة من كثرة الخمور وأدوات الغناء والمغنين والمغنيات، واشتهر أنه كان معه أكثر من مائة مغنية، وقد عرض صلاح الدين ذلك أمام عسكره واستعاذ من هذه البلية، وأعاد بعض هذه الأشياء إلى سيف الدين وقال لحاملها: «اذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه وسلم منا عليه، وقل له عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور».[٥]

لقد نتج من هذه المعركة تدعيم نفوذ صلاح الدين في الشام حيث استولى بعد ذلك على مجموعة من البلاد ومنها: بزاغه، ومنبج، وعزاز[٦] وكلها من القلاع المحيطة

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٩١، وأبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٤٨ وقد أورد خطابا من السلطان للخليفة العباسي يخبره بأمر الزنكيين.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣٦.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٩٢.

(٤) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٩٣، ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٦.

(٥) ابن أبي طي: السيرة الصلاحية، عن الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٥٢، البنداري: سنا البرق الشامي ص ٩٦، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣٦، ١٣٧، أبوالفدا جـ المختصر جـ ٣ ص ٥٦.

بحلب مما أدى إلى اضعاف موقف أهل حلب، كما أن صلاح الدين قد استغل موقف الـزنكيين وتحـالفهم ضده بالكتـابـة للخليفة العباسي يطلب منه الكتابة إلى ملوك المسلمين ليساعدوه ويقفوا معه ضد الصليبيين في جهاده أو على الأقل لا يكونوا معهم ضده، [1] وقـد أراد بذلك الحصول على الدعم الشرعي من الخلافة لموقفه وتوضيح أهدافه الحقيقية التي يسعى من أجلها وهي تحرير بلاد المسلمين.

وإذا كان الزنكيون قد استعانوا بالصليبيين ولم يفلحوا فانهم بدأوا يستعينون بالقوى المحلية في الشام والتى تشاركهم فى الموقف العدائي لصلاح الدين ولذا كاتبوا سنانا رئيس فرقة الحشيشية يطلبون منه اغتيال صلاح الدين، ولقد كانت محاولة الاغتيال هذه المـرة أكثـر تنظيما حيث انضم الحشيشية إلى جند صلاح الدين بعد أن لبسوا لباسهم واستطاعوا الوصول إليه وهو على عزاز ومهاجمته، وقد كان في امكانهم هذه المرة قتله لولا عناية الله به حيث كان يلبس الحديد فلم تؤثر فيه طعناتهم واستطاع الأمراء تخليصه منهم. [2]

وجـد صلاح الـدين أن الأمور لا تستقر إلا بفتح حلب وتخليص اسماعيل من الأمراء الذين يهيمنون عليه فسار إليهم بجيشه وحاصرها أواخر سنة ٥٧١هـ واستمر يحاصرها حتى محرم سنة ٥٧٢هـ. وكان كمشتكين خارج حلب فخشى أن يتم صلح وهـو خارجها فاحتال على صلاح الدين ودخلها وتراسل الجانبان وقد اشترك العماد الاصفهـاني في تلك المحـادثـات التي لم تسفـر عن شيء لتعنت الأمـراء المحيطين بإسماعيل[3] وقد أدرك أهل حلب حراجة موقفهم بعد أن طال الحصار فبدأوا يتذللون ويطالبون بالصلح فأجابهم صلاح الدين لذلك، وكتب العهد وحلفوا عليه جميعا.

ويمكن تلخيص بنود هذا الصلح فيما يلي:

١ ـ أن يكون لصلاح الدين من حماة وما فتحه إلى مصر.

---

(١) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٤٩.

(٢) ابن أبي طي: نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٦٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٥، ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٩١.

(٣) سنا البرق الشامي ص ١٠٤.

٢ ـ أن تبقى حلب بيد الصالح إسماعيل وتضم إليها عزاز.
٣ ـ أن يطلق الصالح إسماعيل أولاد الداية.
٤ ـ أن ينضم أهل الموصل لهذا الصلح وكذلك أهل ديار بكر.
٥ ـ إذا نقض أحدهم الصلح كان الجميع ضده يدا واحدة.[١]

وبهذا الصلح اعترف الزنكيون جميعا بحكم صلاح الدين على مصر ومعظم الشام وأصبح هو الحاكم الشرعي المدعوم من الخلافة، وبذلك استطاع توحيد مصر والشام فى دولة واحدة، ولم يبق إلا حلب تحت حكم إسماعيل ولكن في ظل صلاح الدين.

لقد استغرق هذا العمل جهدا ووقتا من صلاح الدين رحمه الله وقد آن الأوان ليتفرغ لبقية أعدائه من الإسماعيلية والصليبيين وكذلك لتنظيم دولته والاهتمام بشئون عاصمته القاهرة.

ففي عام ٥٧٢هـ هاجم صلاح الدين حصون الإسماعيلية في الشام فسبى وحرق وخرب ديارهم وأدبهم على ما كان من محاولاتهم قتله.[٢]

ثم أخذ يضبط أمور الشام بتعيين القضاة والولاة حيث عين الفقيه شرف الدين أبوسعد عبدالله بن أبي عصرون[٣] في قضاء دمشق، كما ولى أقاربه وأبناء عمه ولايات الشام.[٤]

وبعد أن اطمأن على أوضاع الشام واستتب له الأمر فيه عزم على المسير إلى مصر فسار من دمشق يوم الجمعة الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٢هـ ووصلها في السادس عشر منه وتلقاه أخوه العادل وأهله وكان معه العماد الكاتب.[٥]

* * * *

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٠٥، أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٦٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٧، ٤٨، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٥.

(٣) سبق التعريف به.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٥.

(٥) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٤.

أعمـاله في مصر:

عاد صلاح الـدين إلى عاصمتـه القـاهـرة وتفرغ للأعمال الإصلاحية بقية عام ٥٧٢هـ وكانت هذه الأعمال تنصب على تأمين هذه المدينة من الأخطار الخارجية، فقد استفاد صلاح الدين من التجارب السابقة، وأدرك أهمية مصر بشكل عام والقاهرة بشكـل خاص بالنسبة للجهاد ضد الصليبيين حيث أن أنظار الصليبيين أصبحت تتجه نحوها، وكانت الحملات الزنكية التى شارك فيها قد أوضحت له مدى اهتمام الصليبيين بمصر ثم كانت الهجمات الصليبية على دمياط والاسكندرية مؤكدة لهذه الحقيقة، ولما كان صلاح الدين كثير الأسفار والبعد عن عاصمته فقد أراد أن يحصنها ضد الهجمات الخارجية فقام بعملين مهمين خلدهما له التاريخ:

العمل الأول: هو بناء سور كبير يحمي كل القاهرة، والعمل الثاني: هو بناء قلعة وسط العاصمة.

أما السور فقد كان للقاهرة سور ولمصر القديمة سور فوجد صلاح الدين أن ذلك يتطلب منه جهدا وعددا كبيرا من الجند لحماية السورين منفردين فأراد أن يجمعهما بسـور واحـد يبتـدىء من النهـر ويعـود إليه، وأوكـل العمل لبهاء الدين قراقوش الأسـدي[1] فاستعمل الحجارة فى بنائه، وجعل طوله ثلاثة وثلاثين ألف ذراع، كما جعل له أحد عشر بابا غير الأبواب الصغار، إلا أن صلاح الدين مات قبل إتمام العمل.[2]

وبالنسبة للقلعة فقد أراد أن تكون مقرا له إذا أقام في مصر وتكون محصنة ضد أعدائه وبخاصة اتباع الفاطميين الذين يتربصون به، فاختار جبل المقطم لإقامتها عليه وأوكل أمر بنائها إلى بهاء الدين أيضا فأحاطها بالأبراج وبنى فيها مسجدا وحفر بها بئرا وكانت محكمة البناء يحيط بها خندق لحمايتها، والعجيب أن صلاح الدين لم

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٧٩، ٣٨٠، جـ ٢ ص ٢٠٢، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٢.

يسكن بها لأنه انشغل بالجهاد ومات قبل إتمام العمل بها.[1]

ومن الأعمال الأخرى له في القاهرة أنه أمر ببناء مدرسة بجوار قبر الشافعي،[2] كما أمر باتخاذ أحد القصور بيمارستانا للمرضى، ولم يكن بمصر قبل ذلك بيمارستان إلا الذي أنشأه أحمد بن طولون بالقطائع وقد اندثر، وأوقف على البيمارستان والمدرسة أوقافا جليلة.[3]

وبعد أن أتم أعماله في القاهرة اتجه فى شعبان سنة ٥٧٢هـ إلى الاسكندرية لتفقد أحوالها، فمر على دمياط واطمأن على تحصيناتها ثم وصل الاسكندرية فبنى عليها سورا،[4] وكان من جليل أعماله أن أمر بإنشاء ديوان الأسطول وجمع له الأخشاب وعين الصناع فعمل مراكب كثيرة شحنها بالمقاتلة والآلات وأفرد له إيرادا خاصا وكتب إلى سائر البلاد يقول: «القول قول صاحب الأسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه»،[5] وأصدر عدة أوامر للنهوض بالأسطول وتقويته،[6] مما كان له عظيم الأثر فى الجهاد ضد الصليبيين حيث شارك هذا الأسطول في العمليات الحربية في البحر الأبيض المتوسط.

* * * *

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يوحد الجبهة الإسلامية وأن يقضي على أسباب الفرقة والنزاع، وأن يطهر المجتمع الإسلامي من تلك الأمراض الخلقية التي تفشت فيه فبنى بذلك جبهة داخلية قوية يعتمد عليها في الجهاد ومحاربة الأعداء، لقد أمضى صلاح الدين سنوات طويلة في بناء هذه الجبهة إدراكاً منه لأهميتها، ولأن قوة الدولة

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٩، المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٠٣.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٨٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٩.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١٢٠، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٣.

(٤) أبوشامة: الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٨٩، أحمد مختار العبادي، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٢٣٠، ١٩٨١م.

(٥) ابن أبي طي: نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٠.

(٦) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٧٢ وما بعدها.

تأتي من قوة جبهتها الداخلية تلك القوة المعتمدة على الوحدة، والإلتفاف حول القيادة، والإخلاص للقضية والتخلص من مشغلات الحياة وتوافهها، واستطاع صلاح الدين أيضا أن يؤسس دولة ذات كيان مستقل تشمل مصر والشام واليمن والحجاز وتلك الأقطار تمثل قلب العالم الإسلامي، وكان لهذه الأعمال التي قام بها أعظم الأثر فى تحقيق الانتصار على الصليبيين وتحرير بيت المقدس من رجسهم، والملفت للنظر أن صلاح الدين لم ينعم بهذا الملك ولا بتلك الدولة حيث قضى بقية عمره في جهاد مستمر على صهوة جواده متنقلا من مصر إلى الشام ثم إلى الموصل ثم يكر راجعا، وهكذا، حل وترحال وتنقل مستمر وانشغال تام بقضية المسلمين الأولى، لقد تخلص من الأمور الدنيوية، وسخرها كلها للجهاد الذى ملك عليه شغاف قلبه، وأصبح هو همه الأول وشغله الشاغل، وبناءاً على هذا فإن الباحث لا يسعه إلا أن يدافع عن صلاح الدين ويوضح صدق نواياه، وتجرده من هوى نفسه، ومطالبه الشخصية، وأن ما قيل عنه ونسب إليه من أعمال أو أقوال لا تخدم هذا الهدف وتلك القضية فهي أوهام تخيلها قائلوها أو فسروها حسب أهواء مائلة وأهداف مغرضة.

فرحم الله صلاح الدين وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء لما قام به من أعمال حولت أوضاع المسلمين فكانت كما وصفها العماد الكاتب «الإسلام زاهر زاه، والكفر واهن واه، والنصر مضمون، والعصر ميمون، وسر التوحيد سار، وقلب الشرك محزون، وذخر المال مبذول، وكنز الحمد مذخور ومخزون، ونحن في اجتماع واتساع وارتفاع واقتناع، لا شيم كهام، ولا رنة شاك، ولا أنة باك، ولا شكاية مظلوم، ولا حكاية محروم، والأيام ظاهرة الأيامن، باهرة المحاسن، وقد طابت للزمان وأهله أنفاس ونفوس ودارت على الدنيا من ألطاف الله كؤوس». [1]

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

---

(١) سنا البرق الشامي ص ١٢٥.

قائمـــة المصـــادر

(١) ابن الأثير: أبوالحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ).

- الكامل، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الباهر، تحقيق عبدالقادر طليمات، القاهرة ١٣٨٢هـ.

(٢) الأرمـــني: الشيخ أبوصالح (ت ٦٠٥هـ).

- تاريخ الشيخ أبوصالح، اكسفورد، ١٨٩٤م.

(٣) ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ).

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ.

(٤) الأيوبي: الملك الأمجد بن الناصر (ت ٦٥٦هـ).

- نسب الأيوبيين، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت.

(٥) البغدادي: عبداللطيف (ت ١٢٩هـ).

- الإفادة والإعتبار، الطبعة الثانية.

(٦) البنداري: الفتح بن علي.

- سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي.
- تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت.

(٧) ابن تغري بردي: أبوالمحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصورة عن طبعة دار الكتب.

(٨) ابن جبير: أبوالحسين محمد (ت ٦١٤هـ).

- رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار بيروت ١٣٩٩هـ.

(٩) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي (ت ٥٨٢هـ).

- لسان الميزان، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

(١٠) ابن الحسين: يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠هـ).

- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور القاهرة، ١٣٨٨هـ.

(١١) الحمـوي : ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ).
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
(١٢) الحميري : محمد، (كان حيا سنة ٧٢٩هـ).
- الروض المعطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان.
(١٣) ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ).
- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر، ١٣٩١هـ.
(١٤) ابن خلكان : أبوالعباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ).
- وفيات الأعيان، تحقيق احسان عباس، دار صادر.
(١٥) الديار بكري : حسين بن محمد
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان، بيروت.
(١٦) ابن الديبع : عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٣هـ).
- قرة العيون بأخبار البلد الميمون، تحقيق محمد الأكوع، المطبعة السلفية.
(١٧) الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ).
- دول الإسلام، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، ١٩٧٤م القاهرة.
(١٨) أبوشامة : بهاء الدين بن محمد بن عبدالرحمن المقدسي (ت ٦٦٥هـ).
- الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي ومصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٢م، والطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت.
(١٩) ابن شداد : بهاء الدين يوسف بن رافع (٦٣٢هـ).
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.
(٢٠) الصـفدي : صلاح الدين خليل بن أبيك (ت).
- الوافي بالوفيات، جـ ٩ تحقيق وداد القاضي، بيروت ١٤٠٢هـ.
(٢١) ابن أبي طي : يحيى (ت ٦٣٠هـ).
- السـيرة الصـلاحية، كتـاب مفقود حفظ لنا أبوشامة الكثير منه في كتابه الروضتين، وكان الإعتماد عليه.

(٢٢) ابن العماد الحنبلي: أبوالفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت.
(٢٣) الغساني: عباس بن علي الرسولي (ت ٧٧٨هـ).
- تاريخ الملك الأشرف، معهد المخطوطات العربية رقم ٣١٥٠.
(٢٤) أبوالفداء: إسماعيل الأيوبي (ت ٧٣٢هـ).
- المختصر في أخبار البشر، دارة المعرفة للطباعة، بيروت.
(٢٥) ابن القلانسي: أبويعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ).
- ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ١٤٠٣هـ.
(٢٦) القلقشندي: أبوالعباس أحمد (ت ٨٢١هـ).
- صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، الطبعة الأميرية.
- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، الطبعة الأولى.
(٢٧) الكتبي: محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ).
- فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، دار صادر.
(٢٨) ابن كثير: أبوالفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ).
- البداية والنهاية، الطبعة الثانية ١٩٧٤م، بيروت.
(٢٩) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).
- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي، القاهرة ١٣٩٣هـ.
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، ١٩٧١م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط ٢.
- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت.
(٣٠) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ).
- مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ١٩٥٣م.
(٣١) اليمني: عمارة بن أبي الحسن علي (ت ٥٦٩هـ).
- النكت العصرية في الوزراء المصرية، صححه هرتويغ درنبرغ شالون ١٨٩٧م - الديوان، مطبوع مع النكت العصرية.

قائمـــة المراجع

(١) آرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، الطبعة الثانية.

(٢) أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية ١٩٨١م.

(٣) حسن حبشي: نورالدين والصليبيون، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨م.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م.

(٥) عبدالله ناصح علوان: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ.

(٦) عبدالمنعم ماجد: الناصر صلاح الدين يوسف، الطبعة الثانية، بيروت.

- ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، الإسكندرية ١٩٦٨م.

(٧) على بيومي: قيام الدولة الأيوبية في مصر، الطبعة الأولى ١٩٥٢م.

(٨) فولفغانغ مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد الجلاد، الطبعة الثانية، دار الفكر.